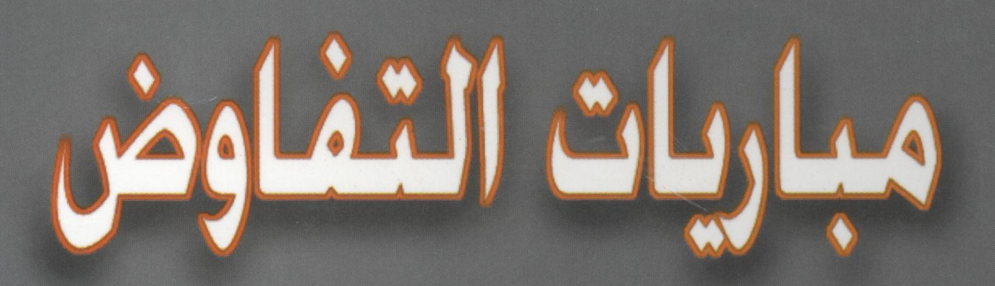


مباريات التفاوض

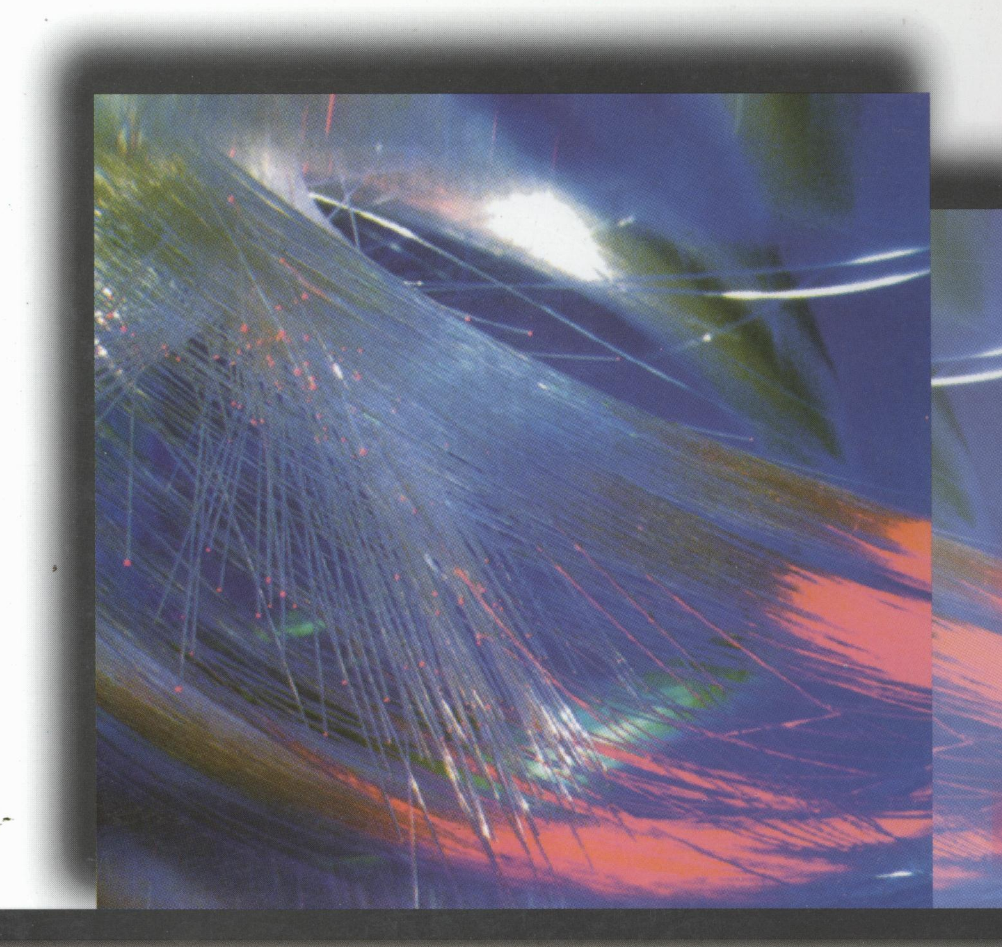
فى مواجهة آليات التسلط والتطرف

د. حسن محمد وجيه

دراسات مستقبلية

سلسلة غير دورية تعنى بتقديم الإجتهادات الفكرية والعلمية ذات التوجه المستقبلى

رئيس التحرير : د. أحمد شوقى
مدير التحرير : أحمد أمين



المكتبة الأكاديمية

حقوق النشر

الطبعة الأولى: حقوق التأليف والطبع والنشر © ١٩٩٧ جميع الحقوق محفوظة للناشر:

المكتبة الأكاديمية

١٢١ ش التحرير ـ الدقى ـ القاهرة

تليفون : ٣٤٨٥٢٨٢/ ٣٤٩١٨٩٠

فاكس : ٣٤٩١٨٩٠ ـ ٢٠٢

هذه السلسلة

تزايدت فى السنوات الأخيرة، عمليات إصدار كراسات تعالج فى مقال تفصيلى طويل (Monagraph) موضوعاً فكرياً أو علمياً هاماً. وتتميز هذه الكراسات بالقدرة على متابعة طوفان الإتجاهات والمعارف الجديدة، فى عصر يكاد أن يحظى باتفاق الجميع على تسميته بعصر المعلومات.

تعتمد هذه الميزة على صغر حجم الكراسات نسبياً بالمقارنة بالكتب، وتركيز المعالجة وتماسك المنهج والإطار. ولأهمية الدراسات المستقبلية فى هذه الفترة التى تشهد تشكيلاً متسارعاً لملامح عالم جديد، سعدت بموافقة المكتبة الأكاديمية وحماسة مديرها العزيز الأستاذ/ أحمد أمين لإصدار «كراسات مستقبلية» كسلسلة غير دورية مع تشريفى برئاسة تحريرها.

والملامح العامة لهذه السلسلة، التى تفتح أبوابها لكل المفكرين والباحثين العرب، تتلخص فى النقاط التالية:

انطلاق المعالجة من توجه مستقبلى واضح (Future-orieted) أى أن يكون المستقبل هو الإطار المرجعى للمعالجة، حيث يستحيل إستعادة الماضى، ويعانى الحاضر من التقادم المتسارع بمعدل لم تشهده البشرية من قبل.

الإلتزام بمنهج علمى واضح يتجاوز كافة أشكال الجمود الإيديولوچى، مع رجاء ألا تتعارض صرامة المنهج مع تيسير المادة وجاذبية العرض.

الإبتكارية Creativity المطلوبة فى الفكر والفعل معاً، فى زمان صارت النصيحة الذهبية التى تقدم فيه للأفراد والمؤسسات: تجدد أو تبدد Innovate or evaporate!!

الإلمام العام بمنجزات الثورة العلمية والتكنولوجية، التى تعد قوة الدفع الرئيسية فى تشكيل العالم، مع استيعاب تفاعلها مع الجديد فى العلوم الإجتماعية والإنسانية، من منطلق الإيمان بوحدة المعرفة.

مقارنة الموضوعات المختلفة سواء أكانت علمية أو فكرية مؤلفة أو مترجمة، من منظور التنمية الشاملة والموصولة أو المستدامة Comprehensive and Sustainable Development ، التى تتعامل مع الإنسان كجزء من منظومة الكوكب، بل والكون كله.

كراسات هذه السلسلة تستهدف تقديم رؤيتنا لمستقبل العالم من منطلق الإدراك الواعى لأهمية التنوع الثقافى، التى لاتقل عن أهمية التنوع البيولوجى الذى تختفى به أدبيات التنمية الموصولة. إننا نقدم رؤيتنا كمصريين وعرب ومسلمين وجنوبيين للبشرية كلها دون ذوبان أو عزلة، فكلاهما مدمر ومستحيل.

هذه الكراسة

حرص كاتبها الشاب منذ عودته إلى أرض الوطن بعد بعثة طويلة إلى الولايات المتحدة تجاوزت الحصول على الدرجة العلمية إلى الانخراط فى العديد من الأنشطة الدولية المتميزة، جعلت منه خبيراً فى التفاوض والحوار الدولى. لقد قدم الدكتور/

حسن وجيه فى السنوات الأخيرة جهداً دؤوباً فى تقدم «ثقافة التفاوض» فى مختلف وسائل الإعلام، والتأكيد على دورها فى جوار الحضارات كبديل عن تصادمها، وأهمية تلافى خلط الأوراق والمصطلحات حتى لا ننزلق بدون وعى إلى هوة الجحود والتطرف. ولا شك أن نظرة سريعة على أدبيات الفكر المستقبلى تؤكد أهمية هذا الموضوع فى تشكيل المناخ الثقافى للقرن القادم، ومن هنا جاءت دعوة الكاتب إلى الانضمام إلى أسرة كراسات مستقبلية*.

أ.د. أحمد شوقى

الزقازيق - يناير ١٩٩٧

* بهذا العمل الهام. فأهلا به ممثلا للشباب ولهموم المستقبل واهتماماته.

المحتـــويـــات

تمهيد

ظاهرة التطرف والعنف من الظواهر المستجدة فى ساحة واقعنا الثقافى وتناولها الكثيرون بالتحليل.. ولكن فى الحقيقة هذه الظاهرة هى ظاهرة عالمية وتشغل بالتصدى لمعالجتها عديد من الدول المعنية وأهم المشروعات المستقبلية المعنية برصد أهم ملامح الصراع فى ظل «نظام عالمى» جديد تتنازعه مفاهيم «الكوكبية» Globalism من ناحية والصراعات العرقية Ethnic Conflicts من الناحية الأخرى.

وفى إحدى الدراسات المستقبلية المهمة يرصد عالم المستقبليات جيروم جلن فى كتابه بعنوان العقل المستقبلى: الذكاء الصناعى(١). إحصائية وردت عن مؤسسة راند تقول بأن «الإرهاب ينمو فى عالم اليوم بنسبة ١٠ إلى ١٢٪ سنوياً. وطبقاً لهذا المعدل فإننا نتوقع حدوث ثلاثة أحداث إرهابية فى اليوم فى عام ٢٠٠٠» وإذا أردنا أن نتدخل إنسانياً وعلمياً لوقف نمو هذا السيناريو المخيف، فإن علينا أن نتعامل مع هذه الظاهرة بأساليب وتوجهات علمية وأمنية متعددة. وأرى أن لمصر دوراً خاصاً فى هذا الصدد بحكم موقعها الجغرافى المتميز ودورها الإنسانى على مدى التاريخ من ناحية، وبحكم أنها أصبحت تكابد مع هذه الظاهرة داخلياً فى العقدين الأخيرين.

حيث إننى أرى ـ ومنذ فترة طويلة ـ ارتباط المعالجة الداخلية بالخارجية. وقد ركزت على هذه الرؤية فى مقالين بجريدة الأهرام فى بداية التسعينيات، أولهما بعنوان «التطرف القادم من الخارج وكيف نواجهه» (١٩ ـ ٢٠ ـ ١٩٩٢) والثانية بعنوان: لغة التطرف والإرهاب بين «تكنولوجيا العداء» و«المبدأ الديمقراطى» (٣٠ ـ ٦ ـ ١٩٩٢) ـ فإننى وفى هذه الدراسة أود أن أركز على معالجة الظاهرة علمياً على المحورين الداخلى والخارجى معاً لأهمية هذا الربط؛ خاصة وأن هناك جذوراً مشتركة على الصعيدين الداخلى والخارجى لمعالجة هذه الظاهرة.. خاصة وأن الإعلام سواء على صعيد إعلامنا أو على صعيد الإعلام الغربى قد ساهم كثيراً فى خلط الأوراق، واستخدام المصطلحات دون تحديد دقيق أحياناً، وفى أحيان أخرى ساهم الإعلام فى «اغتيال المعنى» وتفريغه واختزاله.. وكان لابد من مثل هذه الدراسة التى تحاول تحقيق الأهداف التالية، التى تمثل فى نفس الوقت أقسام هذه الدراسة، وهى:

(١) تقديم عرض نقدى لمجرة المصطلحات المستخدمة مثل «الأصولية»، «التسلط»، «الإرهاب»، «التطرف»، «التعصب»، «الانغلاق»، «الاستبداد» «الإطلاقية»، «الدجمائية»، «الثيوقراطية» «التأطير» ومجرة هذه المفردات / المصطلحات، والخلوص إلى فهم وظيفى للمقصود بها.

(٢) باعتبار أن التسلط هو المصدر الرئيسى لإنتاج خطاب التطرف والإرهاب، تقدم هذه الدراسة تحليلاً لتنوع هذا الخطاب، وإستراتيجيات ممارسته الواضحة والخفية؛ وحالات اللاتفاوض الناتجة عن هيمنته، وذلك من خلال عديد من الأمثلة المتعددة المستمدة، من سياقات عديدة من واقع تفاعلاتنا الثقافية، ومن واقع تفاعلات الإعلام الغربى أيضاً.

(٣) تقديم تصور لأهم عناصر مباريات ثقافة التفاوض الإيجابى، والتى نعتبرها الوسيلة والبديل الصحى لمواجهة آليات خطاب التسلط والتطرف.. فهى البديل وكذلك تمثل المفهوم المحورى للتعليم فى القرن القادم.

(٤) تقديم تصور مبدئى للإستراتيجيات، التى ينبغى أن يأخذها صانع القرار بعين الاعتبار لمواجهة انتشار وهيمنة خطاب التسلط والتطرف والعنف داخلياً وخارجياً.. وإذا كانت سلبيات خطاب التسلط والتطرف والعنف لها أمثلة عديدة على ساحة تفاعلاتنا، إلا أننى أقصر الأمر على هذه الساحة فقط، بل إن ساحة التفاعلات الدولية تموج هى الأخرى بعديد من هذه الأمثلة.و من هنا فإننى أقترح خطاب ومباريات ثقافة التفاوض الإيجابى؛ لتكون فى مواجهة هيمنة خطاب التسلط والتطرف وآلياته الواضحة والخفية.

القسم الأول
مفاهيم وآليات خطاب التسلط/ التطرف

إن التسلط هو المولد الطبيعي للتطرف، والتطرف يؤدى إلى الإرهاب، وهذا الأخير أصبح من أهم الأمور التى ينبغى وأن نتصدى لها بكل الحسم من أجل استقرار الوطن والمواطن، ومن أجل التنمية فى كافة مناحى حياتنا فى عصر، يتسم إيقاعه وحركته بالسرعة والتنافس الشديدين.

ولكن ليس من الكافى أبداً أن نقول إن هذا متسلط أو متطرف، بل من المهم أن نحدد ملامح وفكر ولغة التسلط والتطرف بشكل علمى ومتعمق.. فمثل هذا الجهد يكشف الشكل والحجم الحقيقى لجذور المشكلة الحقيقية، التى ينبغى وأن نتعامل معها.. وهذا هو الطريق السليم لمحاولة علاجها.. ونحو توصيف دقيق لحجم المشكلة نقول إننا لانتعامل هنا مع فئة محددة وقليلة ممن يوظفون أدوات التسلط والتطرف؛ لأن هناك مستويات عديدة للمفهومين، وعلينا أن نوضح فى هذه الدراسة كيف تتجسد هذه المستويات التى تمارس عن وعى أحياناً، وتمارس بطريقة غير مشعورة وكامنة فى أغلب الأحيان، وعلى مستوى ممارسات التيارات الفاعلة المتعددة فى واقعنا الثقافى؛ الأمر الذى يمثل عائقاً للحوار الإيجابى والعمل الجماعى المتكامل والمتنامى.. **لقد تركت جذور التسلط والتطرف تنمو فى حوارتنا اليومية، سواء كان التفاعل سياسياً أم إدراياً أم اجتماعياً أم سمه ماتشاء.. الأمر الذى أنتج اليوم حالة من تأزم العمل الجماعى، الذى دخل فى نطاق تقسيم المجتمع في حالة تفاعلية كثيرة إلى معسكرات وفرق وأحزاب وجماعات؛ حيث شاعت واحدة من سمات أساليب الحوار المتسلط والمتطرف ، وهى الانقضاض** Hasty (Framing) **فى الحوار.**

خطاب التسلط وتصنيفات أنواع الكلام

إن هناك دراسات عديدة حاولت تناول مفاهيم التسلط والاستبداد والتطرف من مناظير مختلفة، ولكن لم توجد بعد دراسة تتعامل مع حقائق وممارسات الحوار من منظور ومفاهيم العلوم التمازجية الحديثة مثل اللغويات الاجتماعية sociolinguistics وعلم اللغويات النفسي psychoLingustics وعلم اللغويات العرقي Ethnolingu-isticsواللغويات السياسية political Lingustics ومن ثم فهذه الدراسة تسعى إلى تجسيد هذا التوجه.

هناك تصنيفات رئيسية لأنواع الكلام يجمع على وجودها خبراء علم اللغويات الاجتماعية والعرقية، بغض النظر عن اللغة التى تستخدم وهى «الوصف» Descrip-tior و «السرد» Narration و «العرض» Exposition و «إقامة الحجج» Argumentation و «التناحر» Dog fight Discourse..ولكن هناك تصنيفين رئيسيين آخرين، هما: «المبدأ التعاونى» Cooperetive principle و«المبدأ التنازعى» Adversative primciple ولكن يمكننا أن نضيف هنا إلى أن المبدأ التنازعى يمكن أن نقسمه إلى «تنازع تناحرى» و«تنازع تعاونى» ولعل من المهم هنا أن نرصد هذه المفاهيم وتعريفاتها الأولية فى الجدول التالى والذى سوف نقوم بالتعليق التوضيحى عليه.

إن الجدول التالى يسمح بتعليقات وتوضيحات عديدة، قمت بتناول بعض منها فى سياقات عديدة أخرى[٢]. ولكن التعليق على أهم مايثيره بخصوص دراستنا هذه هو أن «التسلط» و«التطرف» ومجرة المصطلحات الأخرى التى تندرج فى إطارهما قد تدخل فى إطار مفهومى «التناحر» و«التنازع التناحرى»، وهما سبب تأزم الموقف العربى وإخفاق المعالجات التى تتم لكثير من قضايانا على الصعيدين الداخلى والخارجى.. فلقد كان هناك خلط كبير فى التوجهات.. فكان التوجه إلى الوحدة العربية مثلاً فى إطار تصور أن ينبغى وأن يكون فقط فى إطار المبدأ التعاونى / المثالى.. وهو أمر قد يكون واقعياً فى التفاوض الاجتماعى بين صديقين حميمين، أو زوج وزوجة فى حالة حب مثلاً، ولكنه ليس كذلك فى إدارة «عقول» و«توجهات» الكثيرين.. ولذلك اختلفت أساليب إحداث الوحدة والتعاون العربى لأننا كنا نضع فى أعيننا، ونمارس فى توجهاتنا «المبدأ التعاونى» فقط.. وكانت الأجندات والتصورات فى الحقيقة «متنازعة»، وكانت تستلزم الوعى بآليات المبدأ التنازعى فى الحوار.. ولكن ليس المبدأ التنازعى التناحرى الذى آلت إليه الأمور بمجرد إخفاق توظيف «المبدأ التعاونى ونوقعه».. المشكلة تكمن فى أننا لم نتعود ونتدرب على شئ واقعى فى عالم اليوم، وهو التعامل مع «المبدأ التنازعى / التعاونى» الذى يقر بوجود بل ويتوقع ـ ودون اندهاش واستغراب ـ وجود

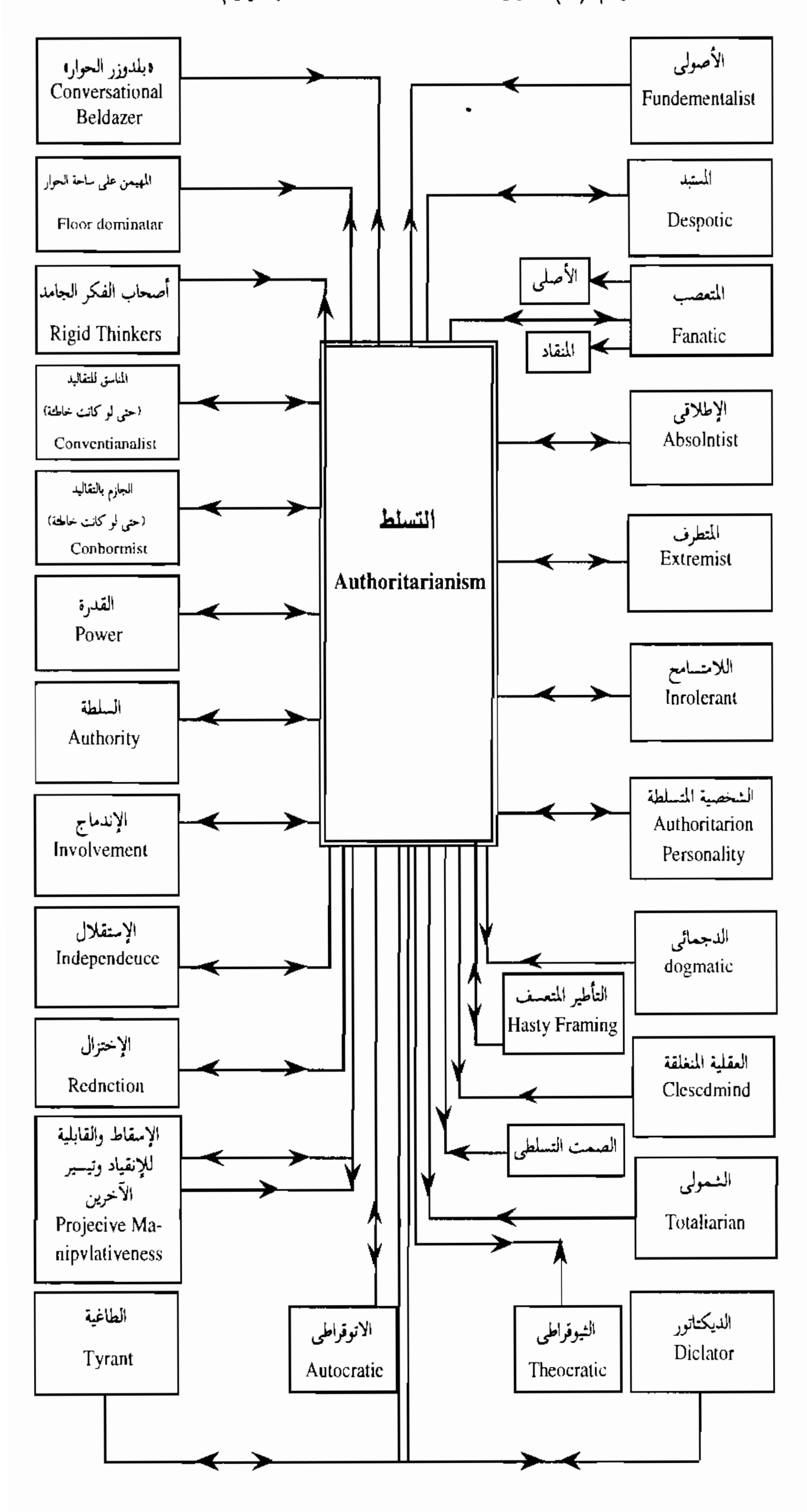
أجندات مختلفة ومتنازعة، وأن الجهد الإيجابى يكمن فى إدارة التنازع بشكل يعين على التناحر إلى مالانهاية والعمل على إدارة الأختلافات وإدارة الأجندات المختلفة والمتافرة بشكل علمى وحيث وتلمس صنع الأرضيات المشتركة فى إدارة الصراع الاجتماعى السياسى والإدارى.

جدول (١) : أنواع الكلام والخطابات الرئيسية.

أنواع الكلام الرئيسية (Discourse Types)	تعريفها
الوصف Description	والمقصود وصف الأماكن ـ الأشخاص ـ الأوضاع ـ إلخ.
السرد Narratian	هو سرد قصة (حكاية) عن المعان ـ الشخص.. إلخ
العرض Exposition	هو تقديم الرؤى التحليلية المختلفة بخصوص موضوع أو قضية مادون التدخل بالرأى الخاص..
الحجج Argumentation	هو تفنيد الرؤى التحليلية المختلفة بخصوص موضوع ما أو قضية ما، مع تبنى وجهة نظرة محددة، والدفاع عنها، وإثبات قوتها وتفوق منطقها على وجهات النظر الأخرى المطروحة.
التناحر Dog fight di scourse	هو ممارسة التسلط والاستبداد والدفاع عن وجهة النظر، دون حجج حقيقية تستند إلى العلم والمنطق السليم، ودون الدخول إلى الحوار بمبدأ تبادل الحجج وهو إقامة الحجج مع الأطراف الأخرى وصولاً للحل أو الطريق الأصوب والأصلح للجميع، والذى يتفق ومنطق العدل وإدارة الخلاف بشكل عقلانى.
المبدأ التعاونى فى الحوار Cooperqtive principle	وهو ذلك المبدأ الذى يسلكه المتحاورون، الذين يريدون إظهار التعاون الحقيقى فى الحوار، سعياً للوصول إلى حلول سريعة، مع مراعاة كل منهما للآخر ولأجندته ولظروفه.. وهذا المبدأ يطبق عادة بشكل أتوماتيكى فى حالة عدم وجود تنازع كبير فى أجندات المتحاورين/ المتفاوضين.
المبدأ التنازعى فى الحوار Adverq tivDiscorse	وهذا المبدأ يمكن رؤيته من خلال تصنيفين رئيسيين، وهما «المبدأ التنازعى «التناحرى» أى التنازع المستمر الذى يدعم التسلط والاستبداد، والتنازع حتى يتم فرض وجهة نظر ما من خلال التنازع والمناورة والحرب والتناحر.. والمبدأ التنازعى / التعاونى، وهو الإقرار بوجود خلاف كبير عن وجهات النظر، ولكن دون الانزلاق لحالة التناحر / الحرب، والعمل الجاد على إدارة الصراع بقدر من التعاون مع الآخرين.

إن التسلط والتطرف ومجرد المصطلحات المتعلقة بهما هما مداد خطاب «التناحر» والتنازع التناحرى، وهو ماسوف نتعرض له فى إطار مايلى..

شكل رقم (١) مجرة المصطلحات المتعلقة بمفهوم «التسلط»



إن الشكل رقم (١) السابق يوضح مجرة المفاهيم ذات العلاقة بمفهوم التسلط.. وهناك قدر من التداخل والتضاد بين هذه المفاهيم بلاشك، ولكنها توضح أولاً تنوع مفردات ومفاهيم التعبير عن المفهوم المحورى، هنا وهو «التسلط» Authoritarism، ولكنها فى الوقت نفسيه تلقى بالضوء على قدر الاختلافات بين المفهوم المحورى، وبعض المفاهيم ذات العلاقة، وسوف نقدم فى هذا القسم من الدراسة تعريفات للمفاهيم الواردة بالشكل، وكذلك بإستراتيجيات الحوار التسلطى (فى القسم الثانى). ولكننا نركز هنا على أهم الأختلافات بين مفهوم التسلط والمفاهيم المتعلقة به، وأهمها مفهوم السلطة Authority أى ممارسة السلطة أياً كنت فى السياقات الاجتماعية والإدارية والسياسية، وبين سوء استخدامها وسوء توظيفها لفرض وجهة نظر ما.. فيتحول المفهوم من ممارسة السلطة وهو أمر شرعى، ومتفق عليه فى كافة المجتمعات لمن تكون بيده السلطة إلى ممارسة «التسلط» وهنا ننتقل إلى سلبيات التفاعل وتأزبمه، كذلك تعكس المفاهيم المصاحبة لمفهوم التسلط علاقة وتفاعلات أخرى مثل معادلة «الاندماج» والقدرة و «الاستدلالية» أو ما أسميه بالإنجليزية Ipl equation [Independence / Power Authority Involvment]كمعادلة تنتمى للخطاب المناقض للخطاب التسلطى، حينما يتم ضبطها بدقة فى حالات التفاعل السيسى والاجتماعى والإدارى، وحينما تنتمى لخطاب «التسلط» عندما تنتهك أركانها، ويفقد المتحاورون القدرة على ضبطها، وهذا ماسوف أقدمه تفصيلاً مدعماً بالأمثلة له فيما يلى.. ونبدأ هنا أولاً رصد تعريفات وأدبيات مفهوم «التسلط» وهنا نقول بأن هناك عديداً من الدراسات، التى تناولت مفهوم «التسلط» فى عدة مجالات سياسية واجتماعية وتربوية[٣]. و لكنها اجتمعت على أن تتبنى منظوراً فلسفياً يبتعد عن المنظور الأمبريسى، الذى تتبناه هذه الدراسة فهذا المنظور نابع من توجهات علم اللغويات الاجتماعية والعرقية، حيث يتم تحليل البيانات لتحديد بنية الحوار والتعبير والجدل الاجتماعى والسياسى والنظر للعملية التفاعلية، التى تجسد مفهوم التسلط كنزعة نحو فرض الرأى أو «الحقيقة»، ومن ثم محاولة إلغاء التحاور.. أى وبكلمات أخرى يتم التركيز على البعد الديناميكى للحوار فى شكل فعل ورد فعل، أو إرسال واستقبال.. والتعريف الأولى لمفهوم التسلط هنا هو أنه على مستوى الإرسال شكل من أشكال فرض الرأى أو «الحقيقة»، وتحديد إطار وموضوع وأجندة النقاش أو تعريفها أو إلغائها، إذا استدعى الأمر من ناحية أو طرف واحد. أما على مستوى الاستقبال فالمحاور المتسلط يفترض أن يتلقى السامع مايقوله بشكل من أشكال «الخضوع» و«التكيف» والأخذ بكلامه وبرأيه المسيطر، دون جدل أو مراجعة أو نقد.. أى وبتعبير آخر وحسبما يقول هشام شرابى فى كتابه بعنوان النظام الأبوى وإشكالية تخلف المجتمع العربى[٤] طلب «سمع الكلام» هذا إن لم يتوقع المتسلط من السامع له إن يهز رأسه له بالمواقفة،وأن تكون عيناه معبرتين عن الاهتمام البالغ والتأييد لما يذهب إليه.

وبتعريف آخر يمكننا القول بأن التسلط يعتبر انتهاج أشكال متعددة من الحوار، تمثل انتهاكاً لقواعد ومنطلقات الحوار المبنى على الأصول العلمية؛ لإقامة الحجج، وهو الأمر الذى سنوضحه بالأمثلة المتعددة فى القسمين الثانى والثالث.. ومن هنا فإن الخطاب التسلطى يقف حائلاً ضد الإدارة الفعالة والمتكافئة للحوار، وحق الأخذ والعطاء؛ أى إنه ضد الدين الحنيف وضد صلب الفكر الديمقراطى والعمل بروح الفريق المتكامل.. فهو يعمل على تعطيل الفكر والنقد، والقدرة على التفاعل الإيجابى والخلاق، ولايقوم على الإثبات المنطقى بل على فرض الأحكام الاطلاقية، و تكمن المشكلة الحقيقية فى أن ممارسته تكون عن عمد وعن شعور فى أحيان معينة، ولكن تحليل كم كبير من تفاعلات واقعنا الاجتماعى والسياسى تفيد بأن ممارسته آليات حوار التسلط تمارس بشكل غير مشعور فى أغلب الأحيان، وهذا ما سأقدم له أمثلة أيضاً.

المشكلة الحقيقية هى أن التخلص من أنماط وآليات الحوار التسلطى هذا يكمن فى التدرب التقنى على أساليب ومفاهيم إقامة الحجج العلمية وتعرف أوجه الخلل الرئيسية، التى قد تمارس فى عملية إقامة وتنفيذ الحجج ومسار البرهنة Argu mentation؛ خاصة وإذا كانت الممارسة على مستوى اللاشعور.

وهناك مفاهيم عديدة فى إطار الشكل رقم (١) لابد وأن نتناولها بالتعريف؛ لأنها تعتبر من المفاهيم المحورية ذات العلاقة بمفهوم التسلط، وسوف نحاول تناولها هنا بتفصيل أكبر مع الإشارة لطبيعة الأدبيات التى وردت بها.. وهذه المفاهيم هى:

ولقد ورد هذا التعبير فى أدبيات العلوم السياسية التى، تتحدث عن السلطة كمصدر للحكم وتنظيم أمور المحكومين، على سبيل المثال راجع كتاب خلدون النقيب الدولة(٥) **التسلطية فى المشرق العربى المعاصر** وغيره من الكتب والأدبيات التى تنظر للمفهوم من هذا المستوى.. ولكن لهذا المفهوم فى الحوار وفى منظور علم اللغويات الاجتماعى تنوعات أخرى هامة، تفتقد الأدبيات إلى مناقشتها وإثارتها، مثل: سلطة «المكانة» أو «سلطة العلم» فحوار «الاستاذ والطالب» و«الطبيب والمريض» و«الرئيس والمرؤوس» و«القاضى والمتهم.. كل هذه الأشكال الخاصة من الحوار تنظر إلى مفهوم «السلطة» على أنه مفهوم يتعلق بمفهوم «علاقات القوة / القدرة فى الحوار، وهنا ستطرح فى القسم الثالث معادلة هامة تأخذ بعين الاعتبار تجنب أشكال التسلط فى الحوار ولكنها لاتتجاهل علاقات ـ القوة التى ينبغى، وأن تتوازن مع مفاهيم «الاندماج» الرأى Involvement «الاستقلالية» Independence

١ ـ «السلطة»، Authority

إن هذه المفاهيم قد أثارتها عدة دراسات، ومنها دراستان مهمتان فى مجال علم النفس الاجتماعى، الأولى بعنوان «الشخصية التسلطية» "TheAuthortarian Personnlity" لادورنو(٦) والثانية بعنوان «العقل المنفتح والعقل المنغلق» «الانغلاق

الذهنى» theopen& closed Mind [٧] لروكيه. وعلى الرغم من قدم هاتين الدراستين إلا أنهما على قدر كبير من الأهمية فى طرح مفهوم التسلطية ومايتعلق به من مفاهيم أخرى، فلقد كشفت الأولى عن ارتباط وعلاقة السمات التالية بالشخصية التسلطية:

- Conventiovality of Conformism

٢ - «الانغلاق الذهنى» - «التعصب» - «الرأى المتعسف» «الدجمائية» «التفكير الجامد» - «الاستبداد»:

أى التقليدية أو الانسياق للتقاليد والجزم بها.. أو ما أسميه بترسيخ القائم والتآلف معه، والخوف من التغيير بأى شكل من الأشكال

Authoritarian submissiveness.

أى الخضوع للتسلط وممارسته على الغير

- projectivity and manipua Ltiveness.

أى الإسقاط والقابلية للانقياد أو تسيير الآخرين.

والشخصية المتسلطة تجسد كل هذه المفاهيم طبقاً لمجرى الحوار وطبيعة المتحاور معها. أما الدراسة الثانية لروكيه فهى تقدم تحليلاً دقيقاً للمقصود بمفهومى العقلية المنفتحة open mind والعقلية المنغلقة أو الانغلاق الذهنى (closed mind) وترتبط بالأخيرة مفاهيم مثل صاحب الرأى المتعسف (opinionated person) وعدم التسامح (Intolerance) والدجمائية (Dogmetism) التى تتعلق أساساً بعدم القدرة على التركيب، ورؤية العلاقات المتداخلة والتفكير الجامد (Rigid thinking)،والذى ربطه روكيه بضعف القدرة على التحليل، والمستبد Despetic الذى يركز على موقفه الأولى ولايتراجع عنه ولايبالى بالإشارات التى ترسل إليه، حتى لو كانت تشكل خطورة عليه فى أشياء غير عقائدية، ونضيف إلى قائمة هذه الصفات السابقة التى تتعلق بمفهوم الشخصية المتسلطة، مفهوم التطرف Extremism، والتعصب Fanaticism الذى يتداخل فى معناه مع عديد من المعانى السابقة، وهناك كتيب مهم رصد هذا المفهوم فقط، وهو بعنوان «**سيكولوجية التعصب**» لمجموعة من الباحثين، وهم أندريه هينال وميكلوس مولنار، وجيرار دى بوميج، ويذكر فى هذا الكتيب الذى ترجم إلى العربية(٨) أن اشتقاق كلمة "Fanatique" يرجعنا إلى مفهوم المعبد Fanum ومعناها المعبد / الهيكل، وكلمة متعصب تعنى «ذلك الذى يعتقد أن الآلهة توحى له» ويقول الكتاب.. «ويظن المتعصبون، من خلال توهمهم باكتشاف المطلق ومافوق البشرى أنهم قد أمسكوا بالحقيقة، التى تمنحهم كل العلم، كل القوة والسلطان والعصمة وكل أشكال التفوق على البشر. إنهم يتراجعون إلى مرحلة القدرة الكلية الطفلية، التى تتضمن تحقيق الرغبة على حساب الواقع، الذى يجرى إدراكه بالمعارف وبحدود الإمكانات الإنسانية..

ويترافق الشعور بالقدرة الكلية مع حماس نرجسى وتمجيد لفكرة الانتماء إلى هذه الجماعة، أو تلك ممن اصطفاهم الأزل أول التاريخ.. ويتحدث الكتاب عن تأثير هذا الاصطفاء فيقول «إن الشعور بهذا الاصطفاء النخبوى من شأنه أن يضمد قلق أفراد قست عليهم الحياة، ولم يحظوا بنصيب وافر من الأمن.. ومن ثم تتولد لديهم ثنائية إطلاقية على غرار أبيض ـ أسود ـ صديق أم عدو ـ وهذه الثنائية تؤدى إلى أن يتم حوارهم بتجذير للفكر، ويتم توجيه طاقة العدوانية نحو عدو فى مخيلتهم، لايتراجعون عن إظهار كل العداء، ولايتراجعون عن هذا العداء خشية التنكيل بهم؛ الأمر الذى يضعهم على حافة الإرهاب الذى يجسده فى المقام الأول فكرهم المتطرف هذا.

ويقول أحد كتاب هذا الكتاب وهو بولتروير.. إن هناك مستويين رئيسيين من المتعصبين هم:

١ ـ المتعصب الأصلى.

٢ ـ المتعصب المنقاد.

فالأول بيده الأمر / السلطان Autorite «الرأس الكبير»، الذى يسمح له بأن يعطى لجماعاته (جحافلة من المتعصبين المنقادين)الإذن بارتكاب فعل ما. وهنا يقول الكاتب أن هتلر مثلاً يمثل مفهوم المتعصب الأصلى، وهو يرتبط إلى حد بعيد بمفهوم «جنون العظمة»[(٩)].

مفهوم «الأصولية» «والاختزال العلمانى»! (secular Reductiveness) (Fundametalism)

يعتبر مفهوم «الأصولية» من أكثر المفاهيم التى تتردد فى الإعلام اليوم، وفى عديد من الدراسات، وهنا نرصد تعريـف لوستيك لمفهوم (Fundamentalism) حيث يقول: إن «الأصولية» هى مصطلح يستخدم أكثر مما يعرف.. إنه مصطلح يوظف هنا ليس للإشارات إلى «التدين الزائد» (hyper - reLeligiosity) ، أو لاستثارة صور «التعصب» Fanaticism أو للأساليب الساذجة للتفكير.. ولكن يستخدم للتركيز ولفت الانتباه على نوع معين من السياسة Certain kind of politics.. ويضيف لوستيك قائلاً: ومع ذلك فإننـا بحاجـة إلى تعريف تطبيقى للمفهوم، فيعرفه قائلاً.[(١٠)]

ويذهب لوستيك إلى أن كلمة «أصولية» ظهرت فى أول الأمر فى بداية القرن العشرين فى الولايات المتحدة كوصف للمسيحيين البروتوستانت للأصول الخمسة لمعتقدهم.

وبالتالى استخدمت فى أغلب الأحيان لتشير إلى مصطلحات دينية بحتة، تنتمى إلى التفسير الحرفى لتقاليد ونصوص دينية، بمعزل عن أى واقع اجتماعى، وبالتزام بالحدود الحرفية للنص الدينى.

أما التطور الذى لحق بالمصطلح فى إطار السياسة فيما بعد، فهو فهم على أنه أسلوب للمشاركة السياسية، يتسم باقتراب غير عادى ومباشر لأصول المعتقدات والتصرف والفعل السياسى الذى يهدف إلى إحداث تغيير جذرى فى ممارسة دولة أو مجتمع ما.. إن مايتصف به الأصوليون هو عدم وجود اى رغبة لديهم من تقديم أى حلول وسط بخصوص الواقع المعاش، ولكنهم يبحثون فقط عن إجراء تغيرات جذرية فى المجتمع من وعى الحقيقة المطلقة التى يؤمنون بها هم فقط. باختصار يصف لوستيك ظاهرة الأصولية التى يتبناها كتعريف للمصطلح فى كتابه هو (سواء أكان على مستوى فردى أم مؤسسى أم حركى) فإن «الأصولى» أو «الأصولية» تبنى على مايلى:

(١) أن تبنى الأنشطة على معتقدات لاتعرف معنى الحل الوسط.

(٢) أن يعتبر السلوك من وحى نظام قيم له سلطته العليا الخاصة المرتبط بالعقيدة.

(٣) أن يتم العمل على تبنى سلوك سياسى، من شأنه إحداث تغيير سريع شامل للأوضاع السائدة لصالح المفاهيم التى يتبناها الأصولى

كان ماسبق هو ما أورده لوستيك.... أما جارودى فقد ذكر أن كلمة «أصولية» لم تظهر فى اللغة والمعاجم إلا حديثاً جداً، فهى لم تمثل سنة ١٩٦٦ فى معجم روبير الكبير، ولم تظهر سنة ١٩٦٨ فى الموسوعة العالمية Encyclopedia Universalis ، ويعرفها قاموس لاروس الصغير، سنة ١٩٦٦، بكيفية عامة جداً:

«موقف أولئك الذين يرفضون تكييف عقيدة، مع الظروف الجديدة».. ويضيف قائلاً: «أما لاروس الجيب فيطبقها سنة ١٩٧٩ على الكاثوليكية وحدها: «استعداد فكرى لدى بعض الكاثوليكيين، الذين يكرهون التكيف مع ظروف الحياة الحديثة».(١١)

أما فى سنة ١٩٨٤ فقد ظهر لاروس الكبير (فى ١٢ جزءاً) ليذكر أن الأصولية هى: «موقف جمود وتصلب معارض لكل نمو أو لكل تطور». ثم يضيف جاعلاً الكلمة تتعدى نطاق المجال الدينى: «مذهب محافظ متصلب فى موضوع المعتقد السياسى..» وفى لاروس ١٩٨٧ ورد «أنه موقف بعض الكاثوليكيين الذين يرفضون كل تطور، عندما يعلنون انتسابهم للتراث» كما يرى چان ديبوا..

من هنا يستخلص جارودى المكونات الأصولية الأساسية بقوله: أولاً.. الجمودية؛ رفض التكيف، جمود معارض لكل نمو.. لكل تطور ثانياً العودة للماضى، الانتساب للتراث «المحافظة» وثالثاً.. «عدم التسامح، الانغلاق، التحجر المذهبى» «تصلب»، «كفاح»، «عناد». ويضيف جارودى قائلاً:

«يمكن للأصولية على هذا النحو أن تضع نفسها كجمودية فى مواجهة التطور، كتراث فى مواجهة الحداثة، كتحجر مذهبى فى مواجهة الحياد.. أى يمكن للأصولية أن تكون نقيضة العلمانية».(١٢)

ولكن المأخذ على تعريف جارودى «للأصولية»، ومجرة المفاهيم التى تناولها فى إطارها هو خلطه بين «الأصولية» وبين «مفهوم الكفاح» ومفهوم «التاريخ» والرجوع إلى الأصول.. فهناك جانب نستلهم منه للحاضر، وجانب لاينبغى الاستغراق والتخندق فى إطاره.. كذلك هناك تناقض فى مقولته.. فلقد اعتبر العلمانية «أصولية» ثم اعتبر فى مواقع أخرى من كتابه الأصولية كنقيض للعلمانية. كذلك فإنه خلط فى مواقع أخرى بين «الأصولية» و«العرقية» Ethnicity كما أن وضع شروطاً مستحيلة للحوار.. حيث إنه لاحوار بين فرقاء».. وأن الحوار ينبغى وأن ينتصر على الخصوصيات وهذا ما لايمكن أن يحدث لأنه ضد سنن الله فى خلقه وضد طبيعة البشر.(١٣) وهذا الخلل الكبير فى طرح جارودى لانجده قائماً فى طرح الدراسات، التى وردت فى كتاب مهم آخر بعنوان «الدين»، ذلك البعد المفتقد فى إدارة شئون الدول(١٤)

فلقد اهتم الكتاب بإبراز أهمية التحاور وحل الصراعات، مع عدم تجاهل الاختلافات والخصوصيات ووجود فرقاء فلقد طرح فى الجزء الخاص بالمفاهيم النظرية بالكتاب مفهوم «الاختزال العلمانى» Secularizing Reductivsm ؛حيث ذكر فى صفحة (١٠) أن من مشاكل حل الصراعات وتفاقمها، هو عدم تسمية الأمور بمسمياتها الحقيقية، ويرد هنا أمثلة عديدة.. فمثلاً وفى السنوات الأولى لما عرف بالحرب الأهلية اللبنانية، وصفت الصحافة العالمية فى عدد لاحصر له من التقارير النزاع القائم على أنه بين اليمينين واليساريين "Rightists & Lefists" وعلى الرغم من أنه ـ وفى معظم الحالات ـ كانت الانتماءات السياسية اللبنانية محددة بشكل واضح بالانتماءات الدينية، كما هى اليوم.. كذلك يسوق الكتاب مثال «الانتفاضة»؛ حيث يذكر أن الانتقاضة الفلسطينية كذلك قد تم عدم وصفها بالمسمى الحقيقى لها فى التقارير، بسبب أسلوب «الاختزال العلمانى»، الذى تم توظيفه لوصف الانتفاضة بعيداً عن كونها انتفاضة إسلامية فى المقام الأول، ويضيف الكتاب مثال فيتنام أيضاً، فيذكر فى ص (١١) أنه وقبل «الحرب الأهلية اللبنانية» و«الانتفاضة»، تم تطبيق مفهوم «الاختزال العلمانى» لوصف الوضع فى فيتنام أيضاً ففى أواخر الخمسينات، تم اخضاع كافة العوامل لتحليل موقف الصراع وإدارته بخصوص فيتنام؛ حيث تمت الدراسة التفصيلية بخصوص الأبعاد الاقتصادية والديموجرافية والعرقية والاجتماعية وبالطبع العسكرية، ولكن البعد الدينى فى فيتنام الجنوبية قد تم تجاهله تماماً.. أو بمعنى أصبح لم تتم ملاحظته.. فلم يلاحظ ذلك التوتر الحاد بين الأقلية الكاثوليكية والغالبية البوذية.. لم ينتبه الأمريكيون لهذا البعد الهام.. الذى هيمن على القناعات الشعبية

الفيتنامية، والذى جعل من البعد الدينى بعداً مهماً فى اعتبارات القيادة فى سايجون، وباعتبار تأثيرات تعبئة القوة وتنميته فى إطار الهوية البوذية.

مايهمنا فى إطار ثقافة السلام ومستقبلها فى منطقتنا؟!

إذا كان لنا أن نتوقف هنا؛ لكى نتفهم أبعاد مفهوم «الأصولية» لحسابات إدارة الصراع فى الداخل والخارج لترسيخ مفاهيم ثقافة السلام، التى نتصور أن منطقتنا مقبلة عليها، وأننا قد نجد مايحدد معنى المفهوم فى بعض ماجاء فى تعريف لوستيك أو تعريف جارودى، مع أهمية معطيات المفهوم ومجرد المفاهيم المتعلقة به، وهو ماننشغل به فى هذه الدراسة إلا أن مايهمنا ونحن فى إطار رصد شكل ومعطيات «ثقافة السلام» هو أن نتنبه لمايطرحه لوستيك بخصوص الحركات الأصولية اليهودية، وتأثيرها على معطيات ثقافة السلام؛ حيث ينبغى وأن نتساءل هنا، ونستخدم مصطلح «الاختزال العلمانى»، الذى ورد فى كتاب «الدين، ذلك البعد المفتقد فى إدارة شئون الدولة» فى حالتى المتطرفين اليهوديين بوبر جولدشتاين وباروخ، اللذاين قاما بمذبحتين، قتل فيهما أعداد كبيرة من العرب المسلمين، وتم تأطير فعلتهما وباروخ الإجراميتين على كونهما «حالة فردية» لمختلين عقليين، وليس لمتطرفين كما يذهب إلى ذلك لوستيك فى كتابه[١٥].

.. إن السؤال المحورى الذى ينبغى الإجابة العملية عنه هو: كيف يتخطى اليهود الصراع بين إسرائيل كدولة تدعى أنها دولة ديمقراطية وبين الصهيونية؟ فالصهيونية أو الأصولية اليهودية هى التى تجعل الحاخامات يقولون للجنود الإسرائيليين «لاتطيعوا الحكومة»، وأن إسرائيل مرتبطة بكيان على الأرض من النيل للفرات.. فى حين أن للمؤمنين بالسلام فى إسرائيل، كما حالة الفيلسوف والعالم هوليبوفتش، قناعات مفادها أن اليهودية ليست دولة، ولم تكن دولة عبر تاريخها كله، وإنما هى وعى وارتباط بالثقافة اليهودية وبقيمها، تلك القيم التى ترفض أن يكون من حقها أن يسيطر الشعب اليهودى على شعب آخر، أو أن يسيطر على المنطقة.. إذاً السلام يتناقض مع مفاهيم الصهيونية والأصولية اليهودية، وهذا يعنى أن تصبح إسرائيل دولة ديمقراطية.. أى لايتعين عليها أن تفرق بين مواطنيها، وأن يتجنب قادتها حالة الغموض والازدواجية التى أدت إلى أن اختزل الإسحاقيين (شامير ورابين) أحداثاً مثل حادث بوبر جولد شتاين واعتبارهما بمثابة أحداث فردية لشخصين مضطربين نفسياً، فى حين أنها أحداث نابعة من فكر الأصولية اليهودية، الذى يجد له صدى وحجم ليس بالقليل أو الهين.. إن على قادة إسرائيل أن يحزموا أمرهم بأن يختاروا بين الدولة والرؤية الصهيونية الأصولية، و ترسيخ فكرة الدولة الديمقراطية، التى تعيد الحقوق كاملة لأصحابها، وأن يتعايش فيها مواطنون من جنسيات وخلفيات عرقية مختلفة، دون مبدأ النقاء العرقى، شأنها فى ذلك شأن سائر الدول الديمقراطية فى العالم.. فهذا هو الوضع الذى يرسخ

مفهوم ثقافة السلام داخل إسرائيل ومع جيرانها العرب.. أى إن المطلوب هو التخلى عن «الأصولية» واليهودية الصهيونية اليهودية، إذا كان للسلام أن يكون طبيعياً وعادلاً..

إن الأحداث الأخيرة سواء حادث مقتل إسحاق رابين، أو مقتل رموز حماس مثل عياش، ومن قبله رموز أخرى بفعل الإرهاب الأصولى الصهيونى، هى حوادث جد خطيرة فهى أحداث تعبر عن أرهاب التطرف الدينى الأصولى اليهودى، الذى بمقدوره إفساد أى علاقة، وهو مؤشر إلى ماتسميه إسرائيل بالشرق الأوسط الجديد، قد لايبدو على كونه إلا مسرحاً للهيمنة الإسرائيلية بشتى أشكالها السياسية والعسكرية والاقتصادية الثقافية.. أى تحقيق بالسلام الخادع مافشلت إسرائيل فى تحقيقه فى ميدان المعارك والقتال؟!

.. إن على المفاوض العربى أن يوضح معطيات ثقافة السلام الحقيقى ومتطلباته، وعلى رأس هذه المعطيات الحصول على إجابة مشفوعة بالفعل عن هذا السؤال المحورى: هل يستطيع معتنقو السلام فى إسرائيل أن يأخذوا على عاتقهم مواجهة الأصولية الصهيونية بمفاهيمها المناقضة لثقافة السلام بشكل حاسم، لصالح إدارة الصراع الداخلى لصالح دولة إسرائيل الديمقراطية، التى لاتعيش على حساب حقوق الجيران؟ أم سيستمر مفهوم «الاختزال» والغموض والتمييع، الذى انتهجه كل من شامير ورابين تجاه أحداث مثل أحداث بوبر وجولد شتاين، والتى أوفدت للساحة أيضاً حادث «عامير»، ذلك الشاب الأصولى الصهيونى، الذى قتل رابين نفسه باسم الرب والأرض..؟!

ويبقى ونحن فى اطار تعريف المفاهيم التى وردت بالشكل رقم (١) أن نوضح معانى المفاهيم الأخرى وهى كما يلى:

وهنا نرصد من واقع قاموس «الفكر السياسى لروجر سكروتن [١٦] مايلى:

- الإطلاقى Abooentist

«الإطلاقية من منظور النظرية والممارسة تنطبق على مفهوم» «الحكومة الإطلاقية» Absolute government وهو مفهوم يجب تمييزه عن مفهوم «القوة / القدرة أخرى» "power" فالقوة القدرة يمكن احتواؤها وتحديدها وتحويلها من خلال قوة / قدرة أخرى داخل الدولة.. ولكن الحكومة يمكن أنه تكون مطلقة / اطلاقية دون أن تمتلك كل القوة خاصة، عندما لايكون هناك توازن دستورى بينها وبين القوى التى تقيدها وتحقق معها. وهنا فإن الحكومة لاتنتقد، وهناك من دافع عن هذه الفكرة أمثال Hobbes, Bodin من منطلق الدفاع عن فكرة السيادة Soveneignty – أى تلك القرارات التى لاتكون موضع مسألة أو مناقشة. «السيادة» يجب وأن تمارس من خلال القانون فإن «صاحب السياده »نفسه لايمكن وأن ينتقد بالقانون، الذى يكون رهن تصرفه (تصرف الحكومة المطلقة). من هذه الزاوية فإن القانون ذو أداة تسلطية إذا ماتعلق الأمر بالحكومة المطلقة / الإطلاقية.

الإطلاقية والتوتاليتارية أو الشمولية Toalitairanism

وهناك فرق بين «الإطلاقية» و«الشمولية» طبقاً لسكروتن؛ فالشمولية تعنى عدم الإشراف الكلى من قبل حكومة مركزية تشرف على كل أنشطة ووظائف المجتمع، ولكن المفهوم يعنى وببساطة امتلاك القوة فى يد الحكومة، والتى قد تستخدم أو لاتستخدم.. بحيث لاتتمكن أى أجهزة أو هيئات من امتلاك جزء من القوم أو القدرات أو السيادة..

الإطلاقية / الديكتاتورية

يقترب مفهوم الديكتاتورية من «الإطلاقية» حيث إن «الديكتاتور» فى جمهورية روما هو مسئول لديه قوة وصلاحيات غير عادية، وكان يتم تعيينه فى أوقات الأزمات المدنية والحربية. وكان يتم اختياره من قبل مجلس الشيوخ، وكانت مدة تعيينه لاتتجاوز ستة أشهر وتنتهى صلاحياته بانتهاء الأزمة. ولكن جاء القيصر جوليوس لينتهك هذه القاعدة، ويستمر فى مهمة الديكتاتور لمدة عشرة سنوات، ومنح لنفسه هذه الصلاحيات مدى الحياة قبل أن يتم اغتياله.

وكلمة dictatorship لغوياً جاءت من الفعل dictate «يملى»، فالديكتاتور هو ذلك الشخص الذى يملى كل الأفعال السياسية ،ويجبر الآخرين على طاعتها(١٧).

الديكتاتورية والاستبدادية

ويقول سكروتن إن مفهوم الديكتاتورية بالمعنى المشار إليه أعلاه لايفترق كثيراً فى معناه عن معنى مفهوم «الاستبدادية» Despotism, والتى جاءت من الكلمة اليونانية de - spote's بمعنى السيد Master سيد البيت أو سيد العبيد» وهى مرادفة أيضاً لمفهوم الحاكم المطلق "Absolute ruler" ، الذى يمكن مقارنة تسلطه على المواطنين كتسلط السيد على العبيد. وكذلك لاتختلف هذه المفاهيم عن مفهوم «الطاغية» Ty- rant (١٨)فكل هذه المفاهيم تعنى على الصعيد السياسى امتلاك كل مصادر القوة وتركيزها فى يد الحاكم، ومنع وجود معارضة فعالة وقوية فى الدولة.

مفهوم «الاستبدادية المستنيرة» "Enlightened despotism"

ويضيف سكرتون إلى المفاهيم السابقة مفهوم «الاستبدادية المستنيرة» فيقول إن هناك بعض الكتاب الذين أشاورا إلى مفهوم «الاستبدادية المستنيرة» للإشارة إلى السلطة المطلقة (Absolute monarchy)،كما فى حالة بروسيا فى عهد فريدريك العضيم، وفى مثل هذه الحالات، يقوم «المستبد» بالتأكد من أن كل صلاحيات وعناصر القوة فى يده فقط من أجل تحقيق أهداف نبيلة فى حد ذاتها، وعادة ماتكون هذه الأهداف هى أهداف «الوعى الليبرالى»، والتى تحتاج إلى القوة المستبدة لتحقيقها(١٩)

التطرف Extremism

يقول سكرتون إن التطرف يعتبر مصطلح غامض يمكن وأن يعنى:

(أ) تنفيذ فكرة سياسية إلى أقصى مدى لها، دون توخى تبعاتها وحساباتها الدقيقة، أو عدم توافقها مع الواقع، مع الاستعداد ليس فقط لمجابهة المعترضين بل الاستعداد لمحوهم.

(ب) المفهوم يعنى أيضاً «عدم التسامح» تجاه كافة وجهات النظر المخالفة.

(جـ) تبنى مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» وعدم الاعتراف بمبادىء الاخلاق ومعايير السلوك القويم، بما فى ذلك عدم احترام حياة وحرية الآخرين وحقوقهم[٢٠].

الثيوقراطى (Ttheocratic)

المعنى العرفى لمفهوم «الثيوقراطى» هو «الحكم باسم الله»، ولكن بالمعنى الدارج يعنى «الحكم بأيد القساوسة» ويقول سكرتون إن المعنى[٢١] قد قدمه المؤرخ اليهودى جوزيفس ليشير إلى التصور اليهودى للحكم، كما جسدته التوارة؛ حيث تعتبر الأحكام والالتزامات الدينية كما وردت فى التوراة، هى التى تحدد المسئوليات والالتزامات فى كل من المجالين الدينى والمدنى. والثيوقراطية فى ممارسة الحكم فى العالم القديم لم تجعل الحكم فقط من أيدى القساوسة والكهنة، بل جعلت فى أيديهم أيضاً السلطة التشريعية والقضائية. ويقول سكروتن إن هذا الأمر بقى إلى الآن فى الفكر الاسلامى فى العصر الحديث، وهو الأمر الذى نتحفظ عليه، وهناك جدل بشأنه؛ خاصة وأن الكاتب أعطى المثل الإيرانى[٢٢] وليس الدخول فى تفاصيل هذا الأمر موضع هذه الدراسة

والاوتوقراطى (Autocratic)

أما مفهوم «الاوتوقراطى» "Autoceratic" فهو يعنى حرفياً ـ وطبقاً لسكروتن ـ الحكم من قبل شخص يملك كل عناصر القوة ويمارسها بشكل تعسفى، بغض النظر عن وجود قوانين تمنعه من مثل هذه الممارسة أو عدم وجودها. والمعنى يعنى تركيز القوة كلها ليس فى يد حكومة أو حزب مثلاً بل فى يد شخص واحد فقط. وهنا يزداد الأمر من الإطلاقية فإن القوة وممارستها ليست إطلاقية / مطلقة فقط، بل من الممكن وأن تكون تعسفية[٢٣].

لابد ونحن فى صدد رصد هذه المفاهيم أن نشير إلى أن هناك أعمالاً أخرى مهمة فى واقعنا العربى تطرقت إلى تقديم تعريفات ومناقشات، لمثل هذه المفاهيم من منطلقات فلسفية مثل كتاب د. إمام عبد الفتاح بعنوان «الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى»(٢٤) ومن منطلقات سياسية كما فى كتاب «الديكتاتورية الاستبدادية والديمقراطية فى العالم الثالث» لسويم العزمى[٢٥] ومن منطلقات سياسة دينية مثل كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى[٢٦]، ومن منطلق دينى كما فى كتاب الدولة والسلطة فى الإسلام د. محمد معروف الدواليبى[٢٧]

ولكن مايهمنى هنا فى إطار هذا المنظور اللغوى الاجتماعى / العرفى الذى نتبناه فى هذه الدراسة أن نركز على بعد ديناميكيات التواصل، وهذا ماسوف نوضحه فى إطار معادلة الاندماج والاستقلال السلطة / القوة فى القسم الثالث؛ حيث نوضح بالأمثلة كيف تتفاعل هذه المفاهيم فى إنتاج الحوار، إما نحو التسلط أو نحو ثقافة التفاوض الإيجابى، وهنا نركز على مفاهيم أخرى مثل الآتى:

«الصمت التسلطى» Authoritarin silence و«بلدوزرات الحوار» والمهيمنين على ساحة الحوار "Floor dminators"

ولقد تناولت آليات الصمت فى سياقات أخرى تفصيلاً ولكن ما أود وأن أشير إليه هنا هو معادلة أخرى، وهى ما أسميه بالإنجليزية بمعادلة (ppt) ، وهى اختصار للكلمات الإنجليزية (pause - pace & Turn taking) وهنا نقول إن الحوار التسلطى قد يتجسد فى صمت الآخرين، عندما يسألون أو عندما تقدم مكاتبة بخصوص عمل إدارى أو التماس، أو شكوى لشخص فى موقع السلطة فلايجيب نهائياً ،كما لو كنت لاتتحدث إليه.. وتتجسد هذه الاستراتيجية فى ممارسات اجتماعية كذلك، عندما يوظف الصمت أحد أطراف الحوار بشكل مقيت ينم عن الكبر وتحديد مايستجيبه إليه كلاماً أو كتاب أو مالا يستجيب بشكل أحادى ينقطع فيه التواصل. وهذا يعتبر أحد مستويات تناول الحديث عن آليات الصمت، وتوظيفه فى الحوار على مستوى "Macro" أم على المستوى الآخر وهو "Micro" أى توظيف آليات الصمت أثناء التفاعل، فإنه يتم من خلال الكلمات الإنجليزية الثلاثة التى أشرت إليها، وهى الوقفات أثناء الحوار (pauses) والإيقاع (pace) ـ.. وإعطاء الفرصة للآخرين للتحدث ولاشك أن المتحدث والذى يمكننا وصفه بمفهومى «المهيمن» على ساحة «الحوار» أو بلدوزر الحوار المستلط، «هو ذلك الشخص الذى يوظف هذه المفاهيم بشكل خاص؛ بحيث يمنع إعطاء الفرصة للآخر للحوار من خلال الإسراع بالإيقاع، وعدم توظيف الوقفات التى قد تعطى فرصة للآخرين للمشاركة فى الحوار.. ولقد شاهدت عدة لقاءات مع مسئولين يملكون قدرات تسلطية هائلة ومهارات خاصة فى توظيف معادلة ما أسميه بالـ ppt هذه.

النموذج التسلطى ونظريات الإعلام الدولى

إذا كان لنا أن ننظر للنمـوذج التسلطى فى أدبيات الحكم وتوجهات الدول، لوجدنا أن علماء السياسة وعلماء الاجتماعى السياسى قد تحدثوا عن الليبرالية (Liberalism)،كما فى المجتمعات الغربية أساساً فى مواجهة الشمولية Tontalitari-anism كحدى نقيض. وفى المنتصف وضعف التسلطية Authoritarianism على أساساً التحكم فى مقاليد كل الأمور فى يد الدولة، التى تتركها الدولة للمؤسسات (المجتمع المدنى وللأفراد) بشكل متزايد فى اتجاه ماعرف بالليبرالية وتلجأ للإمساك بها إذا كان الاتجاه للشمولية ـ ولعلنا ونحن بصدد تقديم تعريفات ومستويات مفهوم التسلط يجدر بنا أيضاً هنا أن نرصد النظريات التصنيفية للإعلام الدولى؛ لتتسع مدار كنا للصورة الشاملة والمتعددة لمفهوم «التسلطية» والمفاهيم المتعلقة به. وهنا نقدم هذا الجدول، الذى يضيف من خلاله Siebert,Peterson [٢٨] العلاقة التصارعية بين الإعلام والدولة على مستوى العالم، كما يوضح ذلك جدول (٢) التالى:

جدول (٢) : التسلطية والمفاهيم الرئيسية المصاحبة فى مجال الإعلام.

نموذج التسلطية Authoritarian Model	نموذج الليبرالية Libertarian Model	نموذج المسئولية الاجتماعية Social Responsibility
ـ تم تقديمه فى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى أوروبا.. وكان منبعه الإيمان المطلق بالملك والمملكة Absolute power of the monarch ـ والغرض منه هو تدعيم موقف الدولة وقياداتها. ـ الدولة صاحبة قوانين وقيود لترخيص الصحف وللرقابة عليها والهيمنة الرسمية عليها ـ لايسمح فى إطاره بتوجيه النقد أو التهديد للدولة أو لهياكلها ومؤسساتها. ـ الصحافة مملوكة من قبل الحاكم، والحزب الحاكم ـ المنظرين والمبشرين به Hobbes, Hegel Machiavelli ـ أمثلة لهذا النموذج فى حيز الممارسة اليوم	ـ ظهر فى إنجلترا فى أواخر القرن السابع عشر، وانتشر فى أمريكا وأوروبا. ـ نبع من حركة التنوير وحقوق الإنسان. ـ الغرض: هو تدعيم فكرة البحث عن الحقيقة، وأخبار الجمهور، وشرح وتفسير الأحداث وتسلية الجمهور، وتدعيم فكرة فصل الصحافة عن الدولة. ومن حق الجميع تملك الصحافة فى جو من السوق الحر من أفكار، وكل شئ مسموح به للنشر طالما سانده الدليل والحقائق. ـ المنظرين والمبشرين بهذا النموذج Locke, Miton, Adam, ـ أمثلة لهذا النموذج اليوم.. إنجلترا ـ الولايات المتحدة ـ اليابان ـ ألمانيا	ـ ظهر فى منتصف القرن العشرين فى الولايات المتحدة، ومن جو الليبرالية وتقاليدها الشائعة فى المجتمع الأمريكى. ـ جاء على وجه الخصوص من وحى كتابات لجنة حرية الصحافة وناقدى الصحافة الليبرالية. ـ الغرض منه: إخبار المتلقى وتعليمه لتحقيق صحافة النمو الاجتماعى.. حيث يعتبر هنا مبدأ المسئولية الاجتماعية أهم من الحرية؛ أى إن الصحافة هنا يتم السيطرة عليها، من خلال الرأى الجماعى للمجتمع، وطلب المستهلك للصحافة، ولكن مع أهمية التركيز على أخلاقيات أساسية لايمكن انتهاكها ومجلس للصحافة من شأنه مراقبة ذلك.. وطبقاً لهذا النموذج يمنع نشر أى مادة تؤذى المجتمع أو أفراده أو تنتهك خصوصياتهم وحقوقهم.. والعلاقة مع الحكومة هنا مراعية لصالح المواطن والملكية مسموحة. أمثلة لهذا النموذج.. لايوجد ولكن هناك محاولات فى بعض الدول، ومنها الولايات المتحدة لوضعه موضع التنفيذ.

إذا كان هناك تعليق على الجدول السابق الذى يقدم تصنيفات للنماذج الرئيسية العالمية، التى من الممكن أن يصنف من خلالها الأداء الإعلامى والعاكس لطبيعة وروح التفاعلات بين دول العالم، إلا إنه تكفى هنا الإشارة إلى لغة التسلط، التى تنعكس بالتأكيد فى النموذج التسلطى ونقيضها ـ سواء النموذج الليبرالى أو نموذج المسئولية الاجتماعية ـ تؤكد على حقيقة أن حوار وفكر ولغة التسلط قد تأسست فى الغرب، وليست وليدة واقعنا الثقافى فقط، كما يحلو، ويحاول البعض أن يدعى.. كذلك فإن نموذج المسئولية الاجتماعية هو النموذج المثالى، الذى لم يتحقق فعلين فى واقع الممارسة الدولية إلى اليوم، بل إنه نموذج يحاول الساعون إلى تنبيه، وهو نموذج ينتمى إلى ثقافة التفاوض الإيجابى، التى ينبغى وأن تنتهج آلياته وعناصره فى مباريات مواجهة الخطاب التسلطى الراهن بنسب مختلفة، فى وسائل الإعلام العربية والإجنبية على

السواء. ولعل هناك عديداً من الدراسات المتعددة التى تقدم تصوراً لنموذج ولغة التسلط والمفاهيم المتعلقة به، وأهمها تلك الدراسة التى قدمها نوم تشوسكى وإدوارد هيرمان بعنوان «نموذج الدعاية: الاقتصاد الإعلامى «تصنيع الرأى العام»(٢٩).

القسم الثانى

استراتيجيات وأدوات التسلط فى الحوار: أمثلة من الواقعين العربى والغربى

فى هذا الجزء من الدراسة أود أن أستعرض ملامح وسمات واستراتيجيات لغة التسلط وظواهره، من واقع ملفات الحوار المتعددة فى قضايانا المهمة، والتى شاركت بها فى شكل مقالات، أرى ضرورة رصدها وتجميعها فى هذا القسم من الدراسة؛ لتتكامل صورة رصد أبعاد وإستراتيجيات وظواهر خطاب التسلط وآلياته. ومن خلال عديد من ملفات الحوار المهمة التى شاركت فيها على مدى فترة زمنية فى الأربع سنوات الماضية (منذ عام ١٩٩٢). وهذه المقالات تمثل جزءاً من بنك البيانات Data Bank، الذى استمددت منه مادة هذه المقالات، التى أصبحت بدورها جزءاً ممثلاً منه، وهى كالآتى:

أولاً: من وقائع تفاعلاتنا الثقافية

لغة التطرف والإرهاب بين «تكنولوجيا العداء» و«المبدأ الديمقراطى» (الأهرام ـ ١٩٩٢/٦/٣٠) (من ملف الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين بجريدة الأهرام)

تعقيب على المقال السابق بعنوان «ثم ماذا بعد» ؟! (بقلم أنطوان سيدهم ـ جريدة وطنى ١٩٩٢/٧/٥)

«من أجل مصالحة ضرورية بين الأجيال»

«الاختلاف حول «التنوير «!! ـ جريدة» (البيان ١٩٩٣/٧/٢٢)

«التسلط فى حوار الأطباء والمرضى» (البيان ١٩٩٤/٧/٧)

«وماذا عن قنوات الحوار فى واقعنا..» (البيان ١٩٩٤/٤/٣)

لغة التطرف والإرهاب بين «تكنولوجيا العداء» و«المبدأ الديمقراطى»

إذا كان ملف لغة الحوار الاجتماعى والسياسى فى حاجة إلى أن نفتحه من وقت لآخر لنتأمل ونتدارس مايستجد من أحداث فى إطاره، فإن أحداث ماسمى «بالفتنة الطائفية» أو «الإرهاب» خاصة بعد اغتيال دكتور فرج فوده، لابد وأن تتم دراستها من خلال هذا الجزء من الملف، الذى ينبغى أن يتعرض المحلل من خلاله إلى تحليل لغة

الحوار التناحرى، الذى يعقبه لغة اللاحوار أو لغة الرصاص.. وهذه النوعية من الحوارات يسميها خبراء علم اللغويات الاجتماعى السياسى Dog- Fight Discourse والتعبير بالإنجليزية مأخوذ من مصطلحات القتال الجوى، حين يحاول الطيارون من خلال تحركاتهم ومناوراتهم المتعددة أن يصلوا إلى «ركوب ذيل الطائرة المعادية»؛ حتى تكون فى مرمى نيرانهم.

أخشى أن الأحداث الأخيرة المتلاحقة فى مصر تقول إننا قد بدأنا فى مشاهدة فصول قاتمة من هذا النوع من الحوار المشابه لروتين القتال الجوى.. من هنا ننضم إلى الصوت القائل أن الأمر جد خطير ومؤسف، ويستوجب الهمة والسرعة والعزم والحسم الشديد فى مواجهته، حيث إنه لاينبغى أن يكون هذا النوع من التفاعل المقيت قائماً على أرض مصرنا الحبيبة، أرض التسامح. وملجأ الأمان على مر التاريخ. ومن خلال هذا الجزء من ملف لغة الحوار.. أود أن ألقى الضوء على أمرين، يمثلان امتداداً اللحوار الذى بدأه عديد من الأساتذة الأفاضل على هذه الصفحة، وهما مرتبطان أولا بتركيبة العقلية العدائية مصدر هذا النوع من الحوار، الذى سرعان مايتحول إلى اللاحوار، وثانياً مايعرف «بالمبدأ الديمقراطى» وهنا نطرح كيفية التعامل بحسم مع مصادر التطرف والإرهاب فى الوقت، الذى نحافظ فيه على «سوق طبيعية ومتنوعة لأفكار دون احتكار أو هيمنة»

أولاً: «تكنولوجيا العداء»

المقصود بالتكنولوجيا هنا هى كل تلك الوسائل المتاحة لتجسيد الصورة المنفرة للآخر على كونه «العدو» من قبل العقلية العدائية.. والسؤال الذى ينبغى أن نجيب عنه فى ظل الأحداث الراهنة ـ هو كيف تمكنت هذه العقلية العدائية من خلق هذا الفيضان الهائل من الشر، لدى البعض إلى الحد الذى هان عليه أن يطلق الرصاص ويستخدم الجنازير فى تفاعله مع الآخرين بتسرع وسطحية؟!.. إننى أود أن أستشهد فى هذا السياق بمقولة للفيلسوف المعروف سام كين الذى يقول فى كتابه المهم بعنوان «صورة الأعداء بين الدعاية والحقيقة: إن الأمر يتجسد فى صراع ثلاثة أنواع أصيلة أو صفات رئيسية فى الإنسان حيث إن الإنسان يتصف أولا: بكونه مخلوقاً عاقلاً ـ يحاول تعقل الأمور وفهم الدوافع (Homs Sapiens) ويتصف ثانياً: بأنه كائن يستطيع صناعة الوسائل التى تساعده على تحقيق مايفكر فيه Homo Faber وثالثاً يتصف الإنسان بخاصية العداء أو عقلية الكراهية التى قد تتملكه فى لحظة أو لحظات ما، وتجعل قلبه قاسياً لدرجة أن يقترف أبشع الأفعال (Homo Hosilis).. وهذه الخاصية أو الصفة الثالثة هى التى تمثل المشكلة الحقيقية.. ويقول سام كين فى كتابه أيضاً «إن المشكلة بالطبع لا فى صفة التعقل ولا فى صفة التكنولوجيا (أى صناعة الوسائل)، وإنما الكارثة تكمن فى تلك اللحظات التى يقسو فيها القلب الآدمى، وهذه هى الصفة المزعجة التى توارثها الإنسان جيلاً من بنى البشر إلى الحد الذى يدفعنا إلى تجريده من

إنسانيته بالكامل فى لحظة درامية ما، وهنا نحاول بشتى الطرق أن نجد كافة المبررات المنطقية أو تلك التى تبدو منطقية فى معظم الأحوال، والتى تجعلنا الرأى الصائب، الذى يبرر تلك الكراهية التى أصبحت تملأ وجداننا، ومن ثم نبدأ فى التحرك بدافع الشيطان، فنؤكد على أن الآخر المستهدف هو «العدو» الذى يصبح أمر التخلص منه خدمة للإنسانية.

مما سبق يمكننا القول بأن المشكلة التى نواجهها الآن فى مصر لها طبيعة عالمية، بالإضافة إلى الخصوصية الثقافية المتمثلة فى هيمنة خطاب الاستبداد والتسلط والتعليم التلقينى، وفقدان التألف العلمى مع تقنيات إقامة الحجج وتفنيدها.. من هنا ومن منطلق معالجة وجهى المشكلة، أطالب مرة أخرى بشئ محدد للغاية، وهو أن يتم تدريس مادة تسمى مادة لغة التخاطب على كافة المستويات التعليمية، إذا كنا بصدد عرض أحد الحدود العلمية والعملية على المدى الطويل كذلك اقترح أن يواكب هذا إعداد برامج إعلامية ناجحة وذكية، تتعامل مع نقل رسالة هذه المادة إلى الجماهير فى وسائل الإعلام؛ لتساهم فى حل على المدى القصير لهذه المشكلة المستعصية، التى تتسبب وسوف تتسبب فى كوارث كثيرة إذا لم نتحرك فوراً.. فمثل هذه البرامج التعليمية والإعلامية من شأنها أن تساهم فى صياغة جديدة للغة الحوار فى عمليات التفاوض الاجتماعى والسياسى، ويكون من شأنها زرع مايسميه علماء اللغويات الاجتماعى «بالشك الصحى».. أى ذلك الشك الذى نزعمه عن الآخر فى محاولة جادة للوصول إلى الحقيقة.. أى ذلك الشك الذى يجعلنا نسلك كل الطرق الممكنة، قبل أن نتهم الآخر أو نكرهه على نحو يتسم بالإطلاقية والتصنيف المتعسف والمتسرع.

وإذا كان من الواجب التعامل مع عقلية العداء بتركيبها ووسائلها على المستوى الداخلى، فإن على مصر ـ وفى إطار دورها المتميز على الساحة الدولية ـ أن تتعامل مع «عقلية العداء» خارج الحدود.. ففى ظل مفهوم «القرية العالمية» حيث أصبح الجميع فى حال تأثر وتأثير متبادل، نجد أن أمر التطرف والإرهاب الداخلى مرتبط بطريقة أو بأخرى بتطرف وإرهاب خارجى والمتمثل فى حركة من أسموا أنفسهم بالمسيحية الصهيونية والتى تنادى بهدم الأقصى ومحاربة المسلمين، جهاراً ونهاراً.. كذلك على الأزهر الشريف وهيئاتنا فى الخارج أن تبذل جهداً مكثفاً لتبديد الريبة والشك التى ينظر بها الغرب إلى الإسلام، وكذلك لتوضيح الصورة الحقيقية للإسلام، فلقد وصل الأمر بوسائل الإعلام الغربية إلى ترديف كلمة إرهابى ـ وعربى ومسلم، وهذا ليس فى صالح قضايانا الداخلية والخارجية على السواء.. ولقد لاحظ هذا الأمر العديد من المحللين والموضوعيين أمثال إدوارد سعيد كما فى كتابه المهم بعنوان «كيف تصف وسائل الإعلام الغربية الإسلام»، وكتاب جاك شاهين بعنوان «العربى على شاشات التليفزيون»، وكتاب صموائيل سليمان بعنوان «صورة العرب فى عقول الأمريكيين».

المقصود بمبدأ الجوهر الديمقراطى أن تقام فى المجتمع سوق مفتوحة لكافة الأفكار المختلفة، ويكون على وسائل الإعلام الدور الرئيسى فى إقامة هذه السوق فى الوقت الذى تعمل فيه على تمكين الشعب من التمييز بين الحقيقة والزيف، وإعطاء المعلومات الصادقة، وبالتالى تحقق عملية تنافس الأفكار بنزاهة وعدل الأمر الذى يؤدى فى النهاية إلى اختيار أفضل البدائل المتاحة وانتهاج أنسب السياسات الخاصة بموضوع ما..

ثانياً: المبدأ الديمقراطى

إذا كان ماذكرته من تعريف للمبدأ الديقراطى هو بمثابة تعريف مثالى لهذا المبدأ، فإننى أود أن أقول بأن ما نراه فى مصر من سوق للأفكار من خلال وسائل الإعلام والصفح المختلفة يمثل سوقاً للأفكار المتعددة، التى لم تشهد منطقتنا مثيلاً لها على مدى السنين الماضية، ولابد لأى منصف أن يشيد بما يحدث؛ لأن هذه السوق قد خلقت هامشاً ديمقراطياً لابأس به على الإطلاق، وينبغى حمايته والعمل على تعميقه، والوقوف فى وجه أى ممارسات، يكون من شأنها تحجيم هذا الهامش. من هنا أود أن القى الضوء على بعض السلبيات التى أعقبت حادثة أغتيال د. فرج فودة، والمتمثلة فى ملاح الحوار الذى سرعان ما يتحول إلى مرحلة التناحر واللاحوار.. وأقصد هنا تلك المقترحات بمصادرة الكتب والتصنيف المتسرع والمتعسف، الذى يتجسد فى حوار أنصار التيارات المختلفة لبعضهم بهدف احتكار الساحة. فعلى سبيل المثال لا الحصر يقول د. رفعت السعيد: «إن المناخ المتطرف صنعه القتلة الحقيقيون... التليفزيون الذى لم يزل يمنح الفرصة للبوم كى ينعق بخراب الواطن.. وصحف قومية تعطى الكتاب الدائمين فيها الحق فى امتداح المتطرفين، وتمجيد مايفعلون وتدعو للاعتداد بارائهم!!».

(الأهالى ٩٢/٦/١٠).. إن أى محلل منصف لايتفق مع مقولة د. السعيد، ويتساءل على الفور أى بوم ذلك الذى ينعق بخراب الوطن ويمجد أفعال المتطرفين ويمجده التلفزيون والصحف القومية؟!.. هل هناك إذاً من ـ يخلط بين الفكرة الدينية وبين التطرف!!..

وعلى النقيض لما ذهب إليه د. السعيد نجد أن أحد القادة من التيار الأصولى يتهمون التليفزيون ووسائل الإعلام بأن ممارسات هذه الأجهزة تتسم بالقصور الشديد، وأن ما حدث مسئوليته على الإعلام الحكومى!!. وإذا كان فى هذه المقولة ما يمثل نقداً لوسائل الإعلام فى الوقت، الذى ندد فيه هذا الطرف بأسلوب الإرهاب والاغتيال نجد أن أحد الصحفيين فى الصحافة القومية، قد قام بتصنيف هذه المقولة على أنها «صوت يشجع على الإرهاب»، وإذا كان هذا الجزء من تفاعلات النخبة ويتسم بهذا القدر من الإطلاقية والأسلوب التقريرى تارة والتبسيط الزائد اللإمور والتصنيف المتعسف تارة أخرى، فما بالنا بحجم المشكلة على مستوى العامة!.. إن هذه الظواهر الحوارية

التى تعرضنا لها هى بذرة التحول إلى اللاحوار من قبل أطراف الحوار على اختلافاتهم. إن هذا الوضع يوضح مدى حاجتنا إلى التأكيد على النداء الذى نطرحه، وهو أن تقوم لجنة من خبراء التعليم المتخصصين، ومن الإعلاميين بإدخال مادة تسمى بمادة لغة التخاطب فى العملية، وأن يكون لها وجهها الإعلامى فى الوقت نفسه، فهذا الأمر من شأنه تقويم جذور المشلكة وتدشين صياغة جديدة للغة الحوارالموضوعى، الذى يكون من شأنه التعامل الجذرى مع «العقلية العدائية»، وكشف وسائل «تكنولوجيا العداء» حتى لايكون البعض ضحية لها من ناحية، وحماية وتنمية الإحساس بالمبدأ الديمقراطى على أصول سليمة، تتناسب وواقعنا الثقافى من الناحية الأخرى والله ولى التوفيق.

(الأهرام ـ حسن وجيه ١٩٩٢/٦/٣٠)

ثم ماذا بعد ؟!

تقوم الحكومة بجهد فعال للقبض على الذين قاموا بجرائم الاعتداء على الأقباط فى محافظة أسيوط، وعلى الأخص بمنشية ناصر وصنبو مركز ديروط، مستخدمة فى ذلك ما لدى البوليس من قوات مدربة وعربات مصفحة وأسلحة حديثة، وهى دائماً لاتتحرك إلا بعد وقوع البلاء وقتل الأبرياء، وتخريب وحرق بيوت ومتاجر الأقباط الغلابة، أين كانت هذه القوات وهذا الحماس عند ازدياد التوتر فى هذه القرى، وما وجه إلى الحكومة من تحذيرات ومناشدات بالتدخل السريع الفعال؟ لقد كانت فى سبات عميق واستهتار وتهاون حتى وقعت المصيبة وكثرت المذابح واغتيل عدد عديد من الأبرياء الذين لاذنب لهم ولاجريرة ـ لسنا الآن فى مجال تحليل ومناقشة ماحدث فقد كثرت الكتابة عنه، ووجه الكثير من اللوم للدولة، لكننا الآن نريد أن ننبه الحكومة إلى مايجب عمله سريعاً ثم على المدى الطويل لمنع وقوع مثل هذه الجرائم البشعة.

لقد صرح المسئولون كما كتب الكتاب بوجوب إصدار قانون للإرهاب، ثم ضمرت الهوجة سريعاً ولم نر ولا ملامح لهذا القانون، والظاهر كما قلنا فى مقالنا السابق أن الحكومة ستفكر ثم تفكر ثم تتحرك لتكوين اللجان المختلفة للدراسة، وهكذا سيطول الأمر ليصدر هذا القانون بعد حدوث موجات جديدة من المذابح للأقباط الأبرياء، وهذه هى طبيعة هذه الحكومات أن تصول وتجول وترتفع الأصوات وتكثر التصريحات، ثم تصاب بغيبوبة وسبات عميق لاتفيق منه إلا على نكبة تحل بالبلاد.

لقد كتب الكثيرون من المفكرين والأساتذة عن وجوب إعادة دراسة البرامج التعليمية، وإعادة دراسة الكتب المدرسية وتنقيتها من كل مايبذر بذور الكراهية والبغضاء بين التلاميذ والطلبة المسلمين والأقباط، فتخرج الأجيال القادمة معبأة بكل عوامل الفتنة والفرقة، كما يجب محاسبة المدرسين الذين يقومون بتسميم أفكار ونفوس الصغار

الأبرياء ضد زملائهم المسيحيين، والتفرقة بينهم فى فصول محددة لكل فئة، وقد قرأنا لكثير من الأباء الأمهات المسلمين الذين ذكروا عديداً من الحالات المؤسفة، مظهرين ألمهم لهذه السياسة الهدامة فى تنشئة الصغار على الحقد والكراهية. وبعد انتهاء موسم الامتحانات فأننا نرجو من الأستاذ الكبير وزير التعليم أن يعطى هذا الموضوع اهتماماً خاصاً، وأن يتولاه بنفسه لما له من أهمية كبيرة فى تنشئة أبنائنا ومستقبل الأمة.

إن موضوع الإعلام يستولى على اهتمام كثيرين من أبناء هذا الوطن، الذين يحز فى نفوسهم ماتردت إليه حالة هذا المرفق المهم، الذى أصبح المؤثر الأكبر على توجيه فكر أغلب الشعب، لقد أثار الدارسون هذا الموضوع طالبين أن تكون كتابات الصحف والمجلات بعيدة عن المساس بالدين المسيحى، وعدم التعرض له بالهجوم والسخرية المبنية على أفكار وتفسيرات ومفهومات خاطئة، ووجوب احترام جميع العقائد السماوية.

أما الإذاعة والتليفزيون فقد تردت حالتها وأصبحت مجالا دائماً للهجوم المحموم على الدين المسيحى بمغالطات وجهل فاحش، ورميه بأبشع الصفات والاتهامات؛ مما يملأ نفوس المشاهدين بالكراهية للدين المسيحى ومعتنقيه، والسخرية والاستهتار بهم، وفى هذا تفرقة بين المسلمين والمسيحين، وإذكاء للفتنة الطائفية. إننا لانطالب بالحد من البرامج الدينية ولكننا نرجو أن تتولى شرح وتبيان ما فى الأديان السماوية من محبة وسلام وقيم رائعة تملأ النفوس بالهدوء والسكينة، والاتجاه نحو كل ما طيب وصالح فى هذه الحياة.

لقد كتب الأستاذ الدكتور حسن وجيه - الأستاذ بكلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر بجريدة الأهرام بتاريخ ١٩٩٢/٦/٣٠- مقالاً رائعاً تحت عنوان «بين تكنولوجيا العداء والمبدأ الديمقراطى»، وفيه تكلم عن لغة الحوار الاجتماعى والسياسى، وما يجب أن تكون عليه، وانتهى فى مقاله إلى المطالبة بتكوين لجنة من خبراء التعليم المتخصصين ومن الإعلاميين بإدخال مادة، تسمى بمادة لغة التخاطب فى العملية التعليمية، وأن يكون لها وجهها الإعلامى فى الوقت نفسه، فهذا الأمر من شأنه تقويم جذور المشكلة، وتدشين سياسة جديدة للغة الحوار الموضوعى، الذى يكون من شأنه التعامل الجذرى مع العقلية العدائية؛ حتى لايكون البعض ضحية لها من ناحية، وتنمية الإحساس بالمبدأ الديمقراطى على أصول سليمة تتناسب واقعنا الثقافى، ونحن نضم صوتنا إلى صوته مطالبين بتنفيذ هذا الأقتراح البناء.

نشرنا بالعدد الصادر يوم ١٩٩٢/٦/٢١ بمقالنا تحت عنوان «المغالطات والمهاترات» أن بعض المجلات كتبت أن سيدة قالت فى لندن بأنه تكونت فى أسيوط جماعات

الجهاد المسيحى، وقد وصلتنا رسالة من سيادتها تذكر فيها بأن مانشر لايطابق الحقيقة، وأن ترجمة ماقالته جاءت محرفة وغير سليمة، وهى لم تقصد بتاتاً مانشر.

أنُطوان سيدهم

رئيس تحرير جريدة وطنى

٥ يوليو ١٩٩٢

مصالح ضرورية بين الأجيال

هناك أحداث وأوضاع كثيرة تنطق بخطأ (جسيم) فيما يتعلق بعلاقة الشباب بالأجيال السابقة، وحجم ودور الشباب فى مواقع المشاركة الفعلية فى البناء وفى عمليات اتخاذ القرارات على المستويات المختلفة.. إننا لابد وأن نتناول هذا الأمر من عدة زوايا منها مايلى:

المنظور العلمى: وهنا نرصد غياب المؤسسة، التى تعالج موضوع الشباب وعلاقته بالجيل السابق بالدراسة العلمية المرتبطة بالواقع، كما يحدث فى الدول التى تهتم بالتنبؤ بالأزمات قبل حدوثها، ومن ثم نتمكن من السيطرة على مسار الأحداث وتجنب تفاقم الصراع.. الأمر الذى يعود بالنفع على كل عمليات التقدم بهذه الدول.. إن علينا أن نهتم ونستفيد فى هذا الصدد بدراسات مايعرف الآن بعلم اجتماع الشباب، وبتلك الدراسات فى علم اللغويات الاجتماعية، التى تعنى بدراسة الحوار بين أفراد الأسرة الواحدة، وكذلك الدراسات التى تعنى بظواهر التسلطية فى الحوار على مستوى المجتمع. إننا وإذا كنا بصدد الأخذ بالعلم لحل مشكلتنا، فعلينا أيضاً أن نقدم توصيفاً دقيقاً لحقل التطبيق فى واقعنا، وهنا نرصد الملامح التالية:

الحوار الظاهرى وشباب بين الاستقالة والإقالة!

أتذكر هنا عديداً من مقولات شباب الجامعات وغيرهم عن غياب الحوار الفعلى معهم، وعن غياب الاهتمام الحقيقى والفعال بأنشطتهم، واحتضان وتوظيف طاقتهم بصورة جادة.. وفى مقابل لغة الشكوى هذه نستمع إلى سيل منهمر من مقولات الجيل الأسبق، التى تنمى لغة التأكيد والطمأنينة؛ حيث تؤكد تلك المقولات على أهمية الحوار مع الشباب وأن الشباب هم قوة البلاد ومستقبلها وعمادها.. وأن للشباب كل شئ.. ولكن الواقع يقول إن الشباب لايحصل على شئ يذكر.. وحينما يجد الشباب مثل هذه الفجوة المتسعة بين القول وواقع الحال، نلاحظ أنهم يقدمون استقالتهم الجماعية بعد أن ينتابهم شعور بأنه قد تمت إقالتهم بالفعل، وهنا نجُد قطاعاً كبيراً منهم تنتابه حالة من «صمت اليأس»، وقطاعاً آخر يخنع وينزوى فى المنزل أو النادى أو القهوة فى انتظار الوظائف أو انتهاء الدراسة فى نظام تعليمى، نصف عامه الأكاديمى يمضى فى إجراءات الكنترول والامتحانات، مع غياب لأى أنشطة حقيقية تتبنى هذا الشباب إيجابياً.. وجزء كبير من هذا القطاع من الشباب عادة ماتبتلعه أجهزة

التليفزيون والفيديو فتحوله إلى صورة قريبة من صورة الكاريكاتير المعروف باسم «جنجح» أو صورة ممسوخة، هى نتيجة طبيعية لتركيبة البرامج والإعلانات، وتلك المادة الإعلامية الهلامية التى نعرفها ووصفها كبار مفكرينا بما تستحقه من أوصاف دقيقة. كذلك نلاحظ انصراف قطاع آخر من الشباب للمخدرات ولاشك أننا نجابه هنا مشكلة كبيرة جداً..ونجد قطاعاً آخر يهرب من حضارته ومستقبله بالتقوقع فى غيبوبة الماضى والرفض السلبى لكل شئ.. وأكثر مانعانى منه هو ذلك القطاع الذى انصرف إلى الإرهاب واستخدم العنف ولغة الرصاص.. وهنا ومع الحسم الواجب إلا أننا لابد وأن ندرس الموقف ليس على كونه مؤامرة خارجية فقط.. لأن هناك أسباباً موضوعية متعددة الزوايا.. وهنا يجب أن نحاول تفسير أحداث إرهابية ومتطرفة، غير تلك الأحداث الخاصة بضرب السياحة والهجوم على رموز النظام الحاكم.. وهنا علينا أن نفهم مامعنى تكرار خواطر ضرب التلاميذ للأساتذة.. وكان آخرها على مستوى أكبر من مستوى «التلاميذ» حادثة تهجم أحد المعيدين على عميد كليته، والمشرف على رسالته العلمية وطعنه عدة طعنات بالسكين فى نهاية حوارهما بخصوص الرسالة، التى قدمها المعيد للعميد!! أتصور أن هناك عنفاً وإرهاباً ليس له علاقة بمؤامرة من الخارج.. ويجب دراسته فى سياقه الصحيح..

وفى نقاش حول موضوع، لفت نظرى أحد الأصدقاء إلى مقال بعنوان «الشباب المصرى يخسر معركة صراع الأجيال: كهول يسيطرون على المواقع القيادية حتى الرمق الأخير»!! والمقال يستشهد بدراسة تتسم بالجدية والطرافة معاً خرجت مؤخراً من قسم الاجتماع بجامعة القاهرة، تتحدث عن صراع الأجيال المعاصرة فى مصر ـ وقد توصلت إلى نتيجة خلاصتها أن أقلية من المعمرين تسيطر على كل دوائر النفوذ وصنع القرار من الأحزاب للحكومة، للقطاع الخاص، وتؤكد الدراسة أن هذه الأقلية متساندة ومتضامنة ومتحالفة ضد أى عمليات اختراق من أجيال الشباب.. وأن تحالف المعمرين أقوى من كل القوى الأخرى.. وتقدم الدراسة نماذج عديدة، نستشهد هنا ببعضها على سبيل المثال لا الحصر: حزب الوفد: فؤاد سراج الدين (٨٩ عاماً) وإبراهيم فرج (٨٥ عاماً).. والمرحوم وحيد رأفت (مات وعمره يناهز التسعين رحمه الله)

حركة الإخوان المسلمين عمر التلمسانى بدأ قيادته للحركة، وعمره كان أكثر من سبعين عاماً، وظل فى موقعه حتى توفى إلى رحمة الله وعمره (ثمانون عاماً)، وجاء بعده حامد أبو النصر (٨٨ عاماً) ويساعده مأمون الهضيبى (٧٥ عاماً) ـ حركة الناصريين: ضياء الدين داود (٧٠ عاماً)، فريد عبد الكريم (٧٥ عاماً).. أما الشباب الناصرى فقد خرج من لعبة القيادة على كل المستويات بما فى ذلك اللجنة المركزية..

حزب العمل: وتولى أمره إبراهيم شكرى عام ١٩٨٧، وكان عمره آنذاك (٧٠ عاماً) وساعده القيادة د. حلمى مراد وكان عمره آنذاك (٧٠ عاماً). وتذكر الدراسة أن هناك أحزاباً حديثة العهد، نشأت بالفعل فى عهد الرئيس السادات رحمه الله والذى كان يؤمن بدور الشباب هو الرئيس حسنى مبارك من بعده.. وأن فكرة الحزب الوطنى كانت مستلهمة من فكرة الزعيم الشباب مصطفى كامل، الذى أنشأ الحزب الوطنى عام ١٩٠٧.. ولقد تم اختيار مجموعة من الشباب للنهوض بهذا الحزب، وتفيد الدراسة أن القطاع الخاص له نفس السمات.. بل إن المتأمل فى كافة تحركات المجتمع المدنى «الحديثة» على ساحة تفاعلاتنا ليجد أنها بنمط المعمرين (حفظهم الله)، وغياب دور الشباب، وربما لهذا الوضع أسبابه المتعددة ولكنها حقيقة تسوجب التأمل.

وغياب دور الشباب سواء باستقالة الشباب وفقدانهم الصيغة الفاعلة أو إقالتهم من قبل الجيل السابق، ينبغى تسليط الضوء عليه لأنه من الأمور التى تمس صميم العملية التنموية.

ولقد ساقتنى الظروف للقيام بمهمة الترجمة الفورية فى لقاء حضره نائب رئيس جامعة فى ماليزيا، ومعه وفد يمثل هيئات عليا هناك، وعندما ذهبت إلى مكان اللقاء فوجئت أن «نائب رئيس الجامعة شاب فى السابعة والثلاثين من العمر، وأن الوفد كله تحت الأربعين، وانتابنى شعور يجمع بين الاندهاش والإعجاب، وتصادقنا وتبادلنا أطراف الحديث، وعلمت أن هذا الأمر مألوف فى ماليزيا.. التى يقودها الشباب الآن فى معظم قطاعاتها.. وهنا أتساءل. هل لهذا علاقة بأن ماليزيا من الدول التى تعد على أصابع اليد التى يزداد فيها معدلات النمو والدخل بصورة مطردة، وأنها تشهد حركة تقدم متميز للغاية؟!

إنه من القيم الراسخة والثابتة عندنا أن نحترم ونقدر الجيل السابق دائماً، ولكن ألم يحن الوقت «لنتفاوض» معاً لصالح عملية التنمية على الدور والحجم، الذى لابد وأن يكون للشباب، حتى يشترك فى عمليات صناعة القرارات وتحمل المسئوليات، ونحاصر بذلك ما ألم بقطاعاته التى تحدثنا عنها، ونعيد صياغة الأوضاع لصالح مصر.. ألم يحن الوقت لأن يشارك شباب سن الثلاثينات والأربعينات.. إن الأمر مرتبط بأمور متعددة ينبغى التصارح بشأنها.. والأمر كذلك متروك الآن للجيل السابق؛ ليقول كلمته وليقدم على اتخاذ الفعل، الذى يراه مناسباً وعادلاً فى مسيرته نحو العطاء الإيجابى مع كل التقدير والعرفان (حسن وجيه ـ الاهرام ١٩٩٢/٧/٥)

الاختلاف حول «التنوير»؟!

كأى مصطلح نتحاور بخصوصه فى حوارتنا من أجل التقدم والبناء، نلاحظ أن نهاية التحاور حول كثير من الموضوعات ينزع إلى جذب الأمور نقطة البدء مرة أخرى،

والمحلل الموضوعى لهذه الظاهرة الخطيرة للغاية، يجد أنها ترجع إلى عدة عوامل تتعلق بأسس الحوار العلمية الغائبة ومنطلقات، التى لاشك أنها بحاجة إلى التأصيل فى الممارسة الحقيقية، وعلى المدى الطويل حتى ناتج تفاعلاتنا إلى الطريق الأكثر إيجابية وإشراقاً.

فلم يكن الحوار مفهوم التنوير فى جلسات عديدة من ندوة التنوير بين مصر وأوروبا استثناء من هذه القاعدة المؤسفة، والتى لن نيأس من محاولة المساهمة فى وضع حل لها بكل السبل والوسائل الممكنة فى العملية التعليمية والإعلامية.

وسوف ألقى الضوء على قضيتين فى آن واحد: الأولى وهى القضية المشار إليها آنفاً بخصوص بعض السمات السلبية للتفاعل لغياب الإدراك العلمى الدقيق لمبادىء الحوار، ويصاحب هذا إثارة قضية الحديث.

عن موضوع التنوير والذى يمثل فى حد ذاته قضية مهمة جداً، تحتاج إلى استكمال الحوار على نظافة يسمح ببلورة المنطلقات، التى ينبغى وأن يشترك فى صياغتها الجميع من المهتمين؛ لأنها حكر على مجموعة معينة بالتأكيد، وبداية نحو هذا الاتجاه التعرض بالنقد لبعض الظواهر السلبية، ولكن لايفوتنى هنا أن أشكر جهد القائمين على إعداد هذه الندوة والمشاركين بها، وهى كالآتى:

١ - ملامح ظاهرة الانقضاض فى الحوار كأحد ملامح التسلط.

المقصود بهذه الظاهرة أن يحاول متحاور ما أن يوظف عديداً من الاستراتيجيات اللغوية النفسية والاجتماعية بشكل مكثف، يهدف أساساً إلى تأكيد أجندة ثابتة ومسبقة؛ بحيث لاينتظر ناتج التفاعل الذى هو بالضرورة تحاور وتصارع أجندات ومفاهيم وتصورات مخالفة أو مختلفة من قبل المتحاورين، بأن يتبنوا أكثرها منطقاً وعدلاً فى نهاية الأمر، دون حدة أو احتداد، وهذا هو المعنى الصحيح للحوار الإيجابى وللتثاقف.

ولقد ظهرت سمات ظاهرة الانقضاض هذه واضحة من خلال آراء عديد من الأساتذة والمفكرين من بنى جلدتنا، اشتركوا فى هذه الندوة، وأكدوا بشتى الطرق على أن التنوير الحقيقى والعملى هو أن تكون مصر جزءاً من أوروبا، وبمعنى آخر أن أسس حركة التنوير ومنطلقاته التى ظهرت فى القرن السابع عشر بأوروبا وما لحقها من ممارسات، هى المنطلقات التى ينبغى أن يؤسس وتستمر عليها عملية التنوير فى مصر، وإلا فليس هناك تنوير؛ فطبقاً لتقرير التنوير الأوروبى، علينا أن نقلد وننقل ونتلقى طالما أنه ليس لنا إسهام فعلى، وينتهى الأمر عند ذلك.

وإلى هنا يستمر الحوار ولا بأس، فلكل محكمة فى رأسه، ومن حق الجميع أن يدلى بما لديه مهما كان الرأى، طالما اتفقنا على مبادىء التحاور ولكن لنر ماذا حدث

عندما تم تفنيد هذا الرأى الأوروبى بالندوة. لقد قام هذا التفنيد على أسس ومنطلقات مفادها أن لمصر خصوصية ثقافية، وأن عالميتها ودورها المتميز فى عالم الأمس واليوم يجىء من خلال هذه الخصوصية وحيثياتها الدقيقة، وأننا يجب أن نعنى بالنظرة الأكثر شمولية وأنه من المتعين علينا أن نعى حقيقة منطلقات التنوير فى أوروبا، وعلينا أيضاً أن ننظر بعمق إلى مايساوى مفهوم التنوير فى واقعه العربى والإسلامى، وأن نرصد من هذا ومن ذاك مانراه مناسباً لصيانة التقدم فى جميع الميادين بما يتلاءم وخصوصية مصر وروح العصر، بحيث نؤكد على جانب التفكير العقلانى من ناحية، والجانب الروحى وجوهر الإيمان معاً من ناحية أخرى، دون طغيان لسلطان العقل بلا حدود، الذى يؤيده فريق التنوير الأوروبى المصرى، والذين يرددون ما نادى به بعض مفكرى أوروبا.

وهؤلاء يتناسون أن هناك حركات فكرية أوروبية قد انتقدت مفكرى التنوير، الذين يتجاهلون أهمية الجانب الروحانى فى معالجة الكثير من المشاكل الاجتماعية، مثل إمكان الحياة والموت والإحباط والمصير وغيرها.

أريد هنا أن أذكر فريق مفكرى التنوير بأن يقرأوا مذكرات إيزنهاور، الذى يقول إن من أسرار فترة حكمى فى البيت الأبيض أننى أمر بلحظات تاريخية حاسمة، وكان يقينى فيما يجب أن أفعله يمثل ٢٠ ٪ من التأكد العقلانى، ولكنى كنت أصلى واتخذ القرار.. فإننى أؤمن بأن هناك قوى ربانية عليا، تجعل الأمور تسير فى طريقة ما ولا شأن للقابع فى البيت الأبيض بأى سلطان عليها.

هذا مثال فقط للتدليل على أهمية الجانب الروحانى أو أثره الحقيقى فى الممارسة لبعض قواد الغرب أنفسهم، فما بالنا بمنطقتنا مهد الديانات كلها. إن إغفال الجانب التنويرى الروحانى يؤدى بلا شك إلى تقويض الحضارة، وهنا يقول الأفغانى إن الحضارة الصناعة العربية الحديثة ليست المثل الأعلى؛ لأنها تتسم عموماً بالعجز الأخلاقى، وبأنها حضارة مولدة للحروب والجشع وإلا فكيف نبرر ماحدث فى البوسنة والهرسك الآن؟

ويقول الأفغانى إن التقدم لايمكن أن يكون إنسانياً وأخلاقياً، إلا إذا استند إلى أساس روحى، وأن الغرب لم يتفوق على العالم الإسلامى إلا بآلاته وقوته المادية أما التقدم الحقيقى فالشرق والغرب لايزالان بعيدين عنه، والبشرية كلها قد تأخرت وتراجعت عندما تخلت عن جذورها الروحية.

وأخيراً أود أن أسأل كيف يقترح علينا فريق سلطان العقل بلا حدود معالجة بعض آثار الزلزال المعنوية، والتى لاعلاج لها إلا بحوار من النوع، الذى يؤكد على حدود سلطان العقل البشرى وقدرة سبحانه وتعالى وما قدره لكل إنسان، وسمات هذا الحوار سنجدها فى فكر مثل فكر الرشد العرفانى أو مفهوم الأنوار الذى طرحه الغزالى فى

رسالته بعنوان مشكاة الأنوار، والتى تمثل مثالاً لفكرة رئيسية من أفكار التنوير فى واقعنا العربى والإسلامى، والتى أسس من خلالها فلسفته فى الإشراق، والتى تذهب إلى أن النور الحق هو الله تعالى، وأن الوصول إلى معرفة الله هو نشاط عقلانى لأرباب البصائر الذين يستطيعون أن يستكشفوا حقائق الكون لكى يصلوا إلى معرفة الله.

ولكن كيف يطرح هذا النموذج غير الغربى!! على فريق التنوير الأوروبى؟

هنا ينقض أعضاء الفريق التنوير الأوروبى على طرح فكرة المزج بين التفكير العقلانى والجانب الروحانى لإفهامه حجم الخطأ والتناقض، الذى وقع فيه وتتعدد سمات ظاهرة الانقضاض فى الحوار. ولكن أهم هذه السمات يكمن فى تقطيع النص إلى قطع صغيرة، تخرج الفكرة الرئيسية عن السياق الأصلى تماماً؛ بحيث يتمكن متحاورو الفريق من التركيز هنا على نقطة استطراد لتثبيت اليقين لهذا الفريق، الذى لاتخلو مقولاته من نقد التفكير المسبق وإدانة الوصاية على الرأى، وإذا بهذا الفريق وبطريقة ربما لاشعورية يجسدون فعل الوصاية وفعل التفكير المسبق، فبمجرد سماع البعض منهم لكلمة الغزالى فإذا بهم ينتقدون نقاطاً أخرى قالها الغزالى، ولكن لم يتعامل معها نهائياً النص المطروح والمنتقد فى تلك الندوة، فكيف يستشهد أحد بالغزالى الذى كتب كتاباً عن تهافت الفلاسفة وفريق التنوير الأوروبى يضم أساتذة كبار فى الفلسفة؟!

لم يتحدث أحد عن هذا الكتاب فى الندوة، ولم يشر إليه إلا أساتذة الفلسفة فى هذا الفريق كأسلوب للانقضاض العشوائى. إن هذه الأمثلة للانقضاض العشوائي متكررة فى حواراتنا. فعلى صعيد الأحداث الراهنة كان أحد الجيولوجيين قد بدأ تحليله للزلزال بقوله إن بحيرة السد العالى «بحيرة ناصر» هى السبب، وقبل أن يعى المستمع ماذا يريد أن يقوله هذا الخبير فإذا بهذا المستمع يعقب على تحليل الخبير الذى لم ينتقد الحقبة الناصرية من بعيد أو قريب ويقول: ياأخى ليس هذا وقت للتهجم على الانجازات الناصرية؟! وإذا بالجيولوجى يهز رأسه تعجباً واندهاشاً فما قاله كان رأيا اقتصادياً علمياً فقط..كل ماكان يشير إليه هو فعل البحيرة التى صادف أن تحمل اسم الزعيم عبد الناصر!!

٢ ـ ظاهرة الإحباط وتقليل قيمة الذات والأخر

نلاحظ هذه الظاهرة فى كثير من تفاعلات النخبة مع الأسف، ولن نخوض فى أسباب ذلك هنا فلهذا سياق آخر، ولكن ليس من حق أحد أن يعكس إحباطاته وتشاؤمه المفرط على الآخرين؛ الأمر الذى ينعكس بالسلب على الأجيال القادمة التى ترث هذه النظرية الهدامة، رغم وجود جوانب مشرقة بلاشك فى واقعنا رغم كل ما نمر به.

فعلى سبيل المثال أتهم بعض أعضاء فريق التنوير الأوروبى الجديد بأنه لايوجد بينهم من يفهم أو يعى مفهوم التنوير بمعناه الحقيقى، وأن الموجود على الساحة أشباه مثقفين فقط لاغير، وأتهم البعض الآخر والندوة مسجلة أن مؤسسات الدولة الراهنة هى مؤسسات ضد التنوير، وهذا إبخاس واضح وغير عادل وتلك الندوة من التنوير وغيرها من ندوات التنوير أيضاً قد أقيمت فى مؤسسة من أعرق مؤسساتنا، وهى جامعة عين شمس، وأن الذين قالوا هذه العبارة هم أصحاب أقلام بل صفحات كاملة فى أكبر وأهم صفحاتنا ويقولون ما يشاؤون، اللهم إلا إذا كان التنوير وهو كذلك على طبقاً لما قالوه ومارسوه من استراتيجيات حوارية ـ لابد وأن يكون طبقاً لمعاييرهم فقط.

٣ ـ تصنيف واقعنا إلى معسكرات

من مثل هذه التغييرات التصنيفية غير العادلة أن يقول أحد أنصار أفكار التنوير الأوروبى إن محمد عبده كان من رجال التنوير، على الرغم من أنه من رجال الأزهر! وفى هذا تصنيف غير عادل وتقسيم الواقع إلى معسكرات متناقضة، كأن الأزهر منارة مصر والتنوير بمثابة مفهومين متناقضين!! كذلك رأى بعض أعضاء هذا الفريق أن الجمعبين الأصالة والمعاصرة وبين الجانب الروحانى والعقلانى أو التراث والحداثة هى فكرة هزلية!

إننا إذا كنا ننتقد ممارسات التيارات المتطرفة من عامة الناس، الذين لم يحظوا بالقدر الكافى من العلم، وهم هؤلاء الذين يتعسفون ويعممون بأخلاقية مجحفة فى أحكامهم، وينكرون على الإسلام جوهره، وأنه انتشر فى ظل التعددية والتعايش مع الآخرين مهما كان الاختلاف.. فإننا نود أن نشير إلى أن الممارسات الحوارية التى ذكرنا بعض الأمثلة لها فى تفاعلات ندوة التنوير، هى الأخرى لاتبتعد كثيراً عن تلك الأنماط التفاعلية السلبية فى تفاعلاتنا حول مفاهيم أخرى، وهذا لايحدث فقط فى الجامعات ولكن فى نقاباتنا المهنية والحزبية وعلى مستوى التيارات المختلفة. إلا أن الطامة الكبرى أننا هنا نتحدث عن التنوير أو الأنوار!! ولكن لن يقودنا للتشاؤم بل للسعى الدؤوب والنظر دائماً إلى كل ماهو مشرق، فمن الخصوصية المصرية انتصار التفاؤل والعمل الجاد دائماً فالحاضر والمستقبل رهن بتحركنا، والعدل أن نقول إننا لانتحرك من نقطة الصفر فهناك إنجازات كثيرة مشرقة فى ماضينا وحاضرنا، لا ينكرها إلا جاحد ونحن نتحرك من عندها نحو بناء أمة الأخاء والعدل، وترد كيد المعتدين ولله ولى التوفيق. (ـ حسن وجيه البيان ١٩٩٣/٧/٢٢)

التسلط فى حوار الأطباء والمرضى من منظور العلم والواقع

منذ مدة بدأت فى كتابة بحث، لم يكتمل بعد، عن طبيعة الحوار بين المرضى والأطباء، وكانت دوافع القيام بهذا البحث متعددة ومتداخلة، وكان أهمها هو تعريف القارىء العربى بطبيعة وأهمية كم من الأبحاث الحديثة جداً، تندرج فى إطار ماعرف بتحليل حوار الأطباء مع المرضى. (Doctor / patient com.)

وبإيجاز شديد، ترتكز هذه الأبحاث على افتراض أساسى وهو أن هناك أسساً علمية وحيوية، ينبغى وأن تنتهج فى أسلوب التحاور بين الطبيب والمريض والعكس، لأن افتقاد مثل هذه الأسس تفقد الطبيب أهم عناصر وأدوات التشخيص الدقيق والصائب لنوع المرض وحالة المريض (بل وحالة الطبيب كذلك). وإذا كان ماتقدم يخص المنظور العلمى للتعامل مع هذا الموضوع ـ بإيجاز شديد ـ فإن دوافع الخوض فى هذا الموضوع هو ذلك الوضع التعيس، الذى نجده مستجداً فى واقع ممارستنا فى العالم العربى، فى عديد من الحالات. والحديث عن مثل هذه الحالات السلبية، نتناوله فى محورين هما:

العبث بإدارة الوقت

إذا كان لسوء إدارة الوقت وتقدير قيمته القيمة الحقيقية ملامح كثيرة مع الأسف فى واقعنا العربى، فإن هذه السمات تتجسد بشكل مخيف فى واقعنا العربى، ولعل القارىء يتذكر كم الوقت الكبير الذى نضيعه انتظاراً للطبيب فى عيادته مثلاً، ليس فقط لأن الطبيب يقوم بالكشف على عشرات الحالات فى ليلة واحدة، بل لأن الطبيب لم يحضر للعيادة إلا فى آخر الليل فى أحيان عديدة، فقد تحجز، ويقول الأستاذ عبد الله باجبير فى عموده الشهير بجريدة الشرق الأوسط بتاريخ ١٩٩٤/٩/١٢ «بأن قليلاً من الأطباء فى عالمنا العربى المتمسك بالوقت الذى يحدده للمريض». ويضيف قائلاً:

«تتصل بالعيادة وتحجز موعداً فى السادسة، ولكن الطبيب يصل فى الثامنة، وحينما يحين دورك تكون الساعة العاشرة، ويذكر أن صديقاً له قد ذهب لعيادة أحد الأطباء فى السادسة، ودخل غرفة الكشف فى الثالثة صباحاً، فهل يعطى مثل هذا الطبيب أي اهتمام بوقت مريضه؟ وهل يكون قادراً فى هذا الوقت من اليوم على التشخيص السليم» ؟

التسلط وحوار «كتم الأنفاس»

إذا كان عدم الاكتراث بالآخرين ووقتهم يجسد أحد ملامح وطبيعة الحوار المسلط، وهو حوار ما أسميته بالقناة الأحادية؛ حيث لايعبأ طرف بالطرف الآخر بكافة أشكال عدم الاكتراث.. فإن الشق الثانى الذى يجسد حالات الممارسة السليمة التى توصف طبيعة حوار الأطباء والمرضى فى كثير من حالات واقع ممارستنا، يتلخص فى تعبير الحوار التسلطى، وهو حوار شائع عموماً. وإذا كان ينبغى مقاومة أنماط مثل هذا الحوار فلابد وأن يتم مقارنتها فى حوار الأطباء والمرضى، على الأقل من باب التسمك بالحرفية، واحترام الأسس لما ينبغى وأن تتسم به ثقافة الطبيب والممارسة العلاجية المنضبطة، ولعلى أرصد هنا نماذج من بعض الحوارات فى هذا الصدد:

* أحد المرضى يستدعى طبيباً من «ذوى السمعة الجيدة» لحالة خطيرة، فيطلب منه مساعد الطبيب أن ينتظر على الخط، فينتظر عشر دقائق إلى أن يسمع صوت الطبيب

فيبادره بطلب زيارة منزلية بكل التأدب والحاجة والشعور بالامتنان المسبق فيرد الطبيب باقتضاب «أجيلك» ؟! «ماتيجى أنت ياأخى بكره وتخلصنا!!؟».

* أحد الأطباء «يشخط» فى زوجة أحد الزائرين لعيادته، والتى كانت تشرح له حالة الإبن «فيقول بسرعة إخلصى» فى حين أنها لم تكن قد استغرقت أكثر من ٤٠ ثانية، وكانت تقول أوصاف ألم طفل لايستطيع الكلام بعد، وهنا يضطر الزوج للتدخل بحدة فى الحوار لكى ينبه الطبيب إلى تجاوزه فى أسلوب الحوار أولاً، ويلفت نظره لأبسط قواعد التشخيص السليم ،وهى الاستماع الجيد لما يقال من أعراض.

* طبيب يهم بإعطاء أحد الصحفيين حقنة دون تقديم تفسير فيسأله الصحفى (المريض) عن هذا العلاج الذى يعطيه إياه.. فيطلب منه الطبيب طلباً غريباً.. ويقول له «أنا لا أتدخل فى مقالاتك أو تقاريرك المهنية فلا تتدخل فى شؤون عملى!؟ نعم إنه عمله ولكن إيضا إنه حق وجسم المريض!؟!

مثال من الواقع

فى أحد التحقيقات الصحفية عن رحلة من أعجب مايمكن، ذكر أن سيدة عربية كانت تشكو من «تكويعة» مستمرة ورغبة ملحة فى القيء وذلك بعد فترة وجيزة من الزواج، لم تتعد العام الواحد، وذهبت لتكشف عن سبب هذه التكريعة، وقال لها أحد الأطباء إن هذا بسبب «فتاق» بالحجاب الحاجز، ويجب إجراء جراحة، وحدث ولكن ظل العرض كما هو، وذهبت لطبيب آخر ففتح البطن ليستكشف ولم يجد سبباً واضحاً وقام بتحويلها إلى طبيب مسالك بولية، وأجريت تحليلات صعبة بالصبغة، ووجد أن كليتها سليمة، فذهبت بعد ذلك إلى أخصائى القناة الهضمية، ولم يحدث تقدم، وبعد سلسلة أخرى من الترحال بين عيادات الأطباء أكتشف أحد الأطباء المشكلة وشخص المرأة تشخيصاً سليماً بعد أن علم أن زوج السيدة المسكينة ينتمى إلى قطاع المتسلطين، فهو لايسمح لها إلا بالإجابة عن الأسئلة المغلقة، وهى تلك الأسئلة التى تتطلب الإجابة بنعم أو لافقط، فمن المستحيل لها أن تعبر عن رأيها أو تزيد فى إجاباتها عن «نعم» أو «لا» ولقد سبب لها هذا الأسلوب حالة من الكبت، ظهرت فى شكل «التكريعة» التى كانت تعانى منها، وكان العلاج الجذرى من خلال إجراء حوار ثنائى مع الزوج فى جلسة علاجية، وفيها سأل الطبيب «أيهما أحسن أن تعطى لزوجتك المساحة الصحية من الرأى والنقاش، أم تظل هكذا تدور على العيادات والمستشفيات وتراها تتألم وتذبل أمامك؟ واقتنع الرجل وشفيت الزوجة ولعل هذا الحوار يجسد من ناحية علاج لحالة من حالات التسلط التى نتجت عن التكريعة، ويجسد أيضاً الفرق بين الطبيب المتسلط الذى ينشغل بأجندة ضيقة فى التشخيص ولايستطلع الزوايا المختلفة للحالة، والطبيب الناجح غير المتسلط الذى استطاع أن يشخص الحالة كما ينبغى، وأن يعالج المرأة العلاج المطلوب.

إفلاس الحضارة الغربية ؟!

فى هذا الجو الذى عشته من خلال قراءة مواد الملف الخاصة بهذا الموضوع، أستيقظ فى أحد الأيام، وأطالع مقالة بعنوان «إفلاس الحضارة الغربية» فى إحدى الصحف، وهنا تتزاحم إلى ذاكرتى مشاهد العيادات والمستشفيات فى هذا «الغرب المفلس»، والذى لايملك البعض إلا أن يصفوه بهذه الصفة التى تطرح السؤال «من هو المفلس حقاً» ؟ لماذا يصر البعض على إبخاس الناس أشياءهم؟ وهو الأمر الذى نهينا عن القيام به طبقاً لتعاليم الدين الحنيف.

فعندما تدخل العيادة فى هذا « الغرب المفلس»، يستقبلك مساعد أو مساعدة الطبيب ويقوم بإجراء مقابلة معك يدون أو تدون من خلالها إجابتك عن أسئلة عديدة على غرار: هل عندك هذا؟ هل تشعر بـ؟ هل الوالدة أو الوالد يعانى من مرض ما؟ أو.. أوعشرات الأسئلة الأساسية اللازمة للتشخيص السليم، ثم تدخل الممرضة أو المساعد بإجاباتك هذه للطبيب؛ فيأخذ عدة دقائق يقرأها قبل أن تدخل له، فإذا دخلت كان الحوار ثنائياً، وبعيداً عن أى ملمح من ملامح التسلط عادة، ويدون نتائج هذا الحوار فى ملف خاص بك ليستخدم فى المستقبل.

التسلط وإدارة الوقت

للتسلط علاقة بإدارة الوقت والعكس فالمتسلط لايعبأ بوقتك نهائياً.. وهنا نذكر دراسة قامت بها الجمعية الطبية الأمريكية فى كولومبيا، والتى تخدم نحو أربعين ألف مريض بدراسة الوقت الذى يقضيه المريض فى عيادات الجمعية، فاكتشفت أنه يتراوح بين عشر إلى عشرين دقيقة، ووجدت أن انتظار المريض إذا طال عن هذه المدة، فإن التقصير سيكون من جانب أطباء الجمعية، وهكذا رأت من واجب الجمعية تعويض المرضى الذين ينتظرون أكثر من هذه المدة، وقد أعدت الجمعية إيصالات كل منها بخمسة دولارات، تعطى للمريض عن كل دقيقة يقضيها بعد العشرين دقيقة المحددة، وللمريض الحق بأن يستخدم هذه الإيصالات فى شراء الأدوية أو الأدوات الصحية.

كذلك تم توقيع خصومات على الأطباء المتهاونين فى أداء عملهم؛ طبقاً للمعايير التى وضعتها الجمعية ولقد صرح د. وليام جاكوب رئيس الجمعية أن خدمة المرضى قد تحسنت بعد هذه الإجراءات.

هذا هو مايتم العمل به فى «الغرب المفلس»!! لايسعنى هنا إلا أن أذكر ماذكره شيخ الأزهر فى حديث له مؤخراً حيث قال بيت الشعر الشهير:

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

(حسن وجيه ــ البيان ٩٤/٧/٧)

وماذا عن قنوات الحوار فى واقعنا ؟!

بعد أن قدمنا فى سياقات (الهياكل المولدة للتسلط) ملامح خريطة الاشتباكات الخاطئة فى واقعنا الثقافى، وكذلك بعد أن أشرنا إلى عديد من الظواهر التفاوضية من

منظورى العالمية والخصوصية الثقافية، يهمنا أن نشير هنا إلى عنصر مهم ورئيسى، يعتبر من أهم مستلزمات وضروريات التفاوض وهو الخاص بكل مايتعلق بقنوات الحوار ـ أو بمعنى آخر ـ الإطار العام والمناخ العام الذى ينبغى العمل على تأسيسه وإيجاده لممارسة أنشطة ثقافة التفاوض، التى تحتاج إلى حد أدنى من المستوى لذلك الملعب الذى تقام عليه مباريات التفاوض الإيجابى.

وهناك أبجديات خاصة بالإطار العام والمناخ العام أو مانطلق عليه القناة التى يمارس فى إطارها الحوار، والتى ينبغى أن نرسخها من أجل ممارسة الحوار وأهمها ـ بعد أن نعى مستلزمات ثقافة التفاوض والحوار التقنية وتجنب الظواهر السلبية، التى أشرت إليها فى السياقات السابقة ـ هو أن نتخطى مرحلة الحوار من طرف واحد، وأن يكون الحوار للأطراف المختلفة المعنية؛ والعمل على توسيع المشاركة وعلاج ماأسماه د. سعد الدين إبراهيم بتصلب شرايين المشاركة فى صناعة القرارات، وهذا يستلزم أن يكون الحوار ذا آلية فوقية تحتية وتحتية فوقية، قبل الوصول إلى القرارات.. خاصة المصيرية منها.

وهنا استحضر تلك المقولة اليابانية لأحد العاملين فى الشركات اليابانية الكبرى، والذى تجده يقول أنا أعمل لشركة تويوتا، عند سؤاله السؤال التقليدى ماذا تعمل؟

وهذا مثال عكس لما يقوله الأمريكيون عادة، عندما تسألهم نفس السؤال فتجدهم يقولون ماهو أكثر تحديداً مثل أنا مهندس فى شركة كذا، أو أنا عامل نسيج أو فنى أو مساعد مهندس إلكترونيات.. إلى آخره.

والسبب فى مقولة اليابانى أنه يشارك فعلياً فى الحوار وفى اتخاذ القرارات الخاصة بشركته.. فالقرار يسبقه حوار وأخذ ورد من القمة إلى القاع والعكس؛ حتى تتم صياغته، ومن ثم تجد اليابانى يشعر بانتمائه العالى لشركته، وهو ينتقل فى أكثر من موقع فى شركته، وربما أن هذا الأمر يتم فى سياق انضباط اليابانيين لشروط قياسية للتأكد من جودة عملهم وقوة منافستهم للآخرين فى دول العالم المتقدم، ولكن مايهمنا هنا أن الحوار الفوقى التحتى والعكس من دواعى إقامة حوار إيجابى والوصول إلى قرار سليم.. وهذا الأمر يخلق قناة أو مناخاً حوارياً، يتسم ومتطلبات ثقافة التفاوض، فما يحدث فى كثير من تفاعلاتنا لايزال يعبر عن قرارات فوقية أساساً، تنزل على رقاب العباد.. تصور أن تكون مثلاً استاذاً وتجد رئيس الجامعة يصدر بياناً لايعبر عن وجهة نظره، بل يقول فيه إن الأساتذة يوافقون على هذا الأمر بالإجماع؛ خاصة وإذا كان هذا الأمر يتعلق بالحريات الأساسية للرفض أو الإيجاب، أو أن يصدر قراراً مثلاً بتغيير الجداول فى نصف العام الدراسى؛ بحيث يقوم الأستاذ الجامعى بتدريس ٣٦ ساعة مثلاً فى الأسبوع، بدلاً عن ١٢ ساعة لتغطية عجز ما، وهو النصاب المقبول الذى

يسمح للأستاذ الجامعى بمتابعة أبحاثه وأنشطته، التى تمكنه من المشاركة فى صياغة عقل الأمة، وهو أحد واجباته؛ الأمر الذى يمثل خرقاً لكل الأعراف الجامعية، خاصة وإذا كان مثل هذا القرار ملزماً ولايجوز رفضه!... قد يحدث هذا فى وطننا العربى.. وهذا بسبب حركة قناة الحوار ذات الاتجاه الواحد، والتى يهيمن على ساحتها طرف واحد فقط.. ويكون على الطرف الآخر إما الانصياع والاندماج فى مفاهيم الاستلاب التى تسلبك حوقك، فتنفذ دون أن تفتح فمك بكلمة واحدة.. أو تقرر أن تكون متمرداً ثائراً تخوض معركة خاسرة أو قد تنجح فى مثل هذه المعركة غير المتكافئة بعد أن تكون قد دفعت كثيراً فى سبيل نجاحك فيها، ولكنك تكون الخاسر الأكبر فى إدارتك لوقتك الثمين، والحل الثالث الذى يتسبب فيه طغيان طرف واحد وفوقى عليك فى الحوار فى حالة هذا المثال التوضيحى، هو أن تندمج ثقافة الصمت السلبى والتحايل على أمر تنفيذ مثل هذا القرار بطريقة أو بأخرى، وتكون بذلك مشاركاً فى الثقافة الهروبية ذات المصلحة الفردية، والتى تؤدى إلى تقويض ركائز المجتمع والعمل بروح الفريق الواحد فى نهاية المطاف.. إن ماسقته هو مجرد مثال واحد من عشرات الأمثلة المختلفة والمتعددة، التى نجدها صارخة فى عديد من تفاعلاتنا.. التى ماكان لها وأن تحدث أو أنها لن تحدث إذا ماعملنا على ترسيخ أمر التفاعل المتقدم والدائرى، ذى الاتجاهات الفوقية التحتية والعكس، مع التزام كافة أطراف الحوار بضوابط الحوار لبناء للجميع، والتخلى عن الافتراضات الاستاتيكية الخاطئة لصالح حل مشاكلنا، والسعى نحو التقدم الحقيقى.

ولابد أن تواكب هذه الحركة ثورة على البيروقراطية العقيمة، وإعادة النظر فى هذا الحجم الهائل من القرارات والقوانين التى لاتتناسب، وتحقيق أى تطور اجتماعى فى أى اتجاه، بمعنى أن هذا الحجم الهائل من القرارات والقوانين لابد وأن يحد منها، وتعاد صياغتها فى شكل مجموعة من القوانين، التى تبنى على وحدة من الأساس الفكرى والسياسى والعقائدى للمجتمع، بما يتناسب ومعطيات ثقافة التفاوض المختلفة، التى أشرنا إليها فى سياقات عديدة (حسن وجيه ـ البيان ٣ ـ ٤ ـ ٩٤)

أدوات التسلط الخفية فى حوارات الواقع الثقافى العربى:

أمثلة توظيف الأسئلة فى الحوار

من السهل عادة أن نقول إن فلاناً متسلطاً إذا ما استخدم أدوات التسلط الواضحة فى الحوار، مثل أن يظهر فلان أنه الرئيس فى العمل أو الأب فى المنزل، وأن كلامه لابد وأن يكون نافذاً من غير نقاش، أو أن تحمل مقولاته مفردات الإطلاقية فى مناحى العقيدة أو ما إلى ذلك من أدوات واضحة، لايخفق معها المستمع فى وصف محدثه بالتسلط إذا ما استخدمها.. ولكن الخطير فعلاً هو استخدام أدوات التسلط الخفية أو غير المباشرة فى الحوار.. لأنها قد تمكن مستخدمها من إخفاء تسلطه، والظهور بشكل الإنسان العقلانى البعيد عن التسلط فى عملية تبادل الحجج بخصوص موضوع خلافى

ما.. وهناك لابد أولاً أن نوضح الفرق بين السلطة والتسلط؛ فالسلطة ليس معنى بها السلطة السياسية على وجه التحديد هنا.. ولكن المقصود وكما أوضحت سابقاً هو سلطة العلم والمعرفة مثلاً أو سلطة الوضع الاجتماعى فى سياق ما.. أى إنه عندما يكون المتحدث فى مجال خلافى أو جدلى هو أستاذ اقتصاد من المشهود لهم، فهذا يعطيه وضعاً خاصاً، وهو سلطة التخصص التى تنعكس فى حواره، وكذلك عندما يتحدث أستاذ لطالب أو محقق مع متهم، أو حتى مذيع مع ضيفه.. فكل هذه الأطراف يعطيها عرف المجتمع وتركيبته المتفق عليها سلطة السياق.. وبالتالى تكون لها سلطة أكبر فى تحديد شكل وتوجه الحوار، بل وفرض الموضوعات التى تراها كل هذه الأطراف الأولى.. ولكن إذا جاءت مثل هذه الأطراف عن التوظيف المعقول والمعرف به من قبل المجتمع، أصبحت إذناً ممارسة للتسلط.. وبحكم أننى أتناول تحليل الحوار من واقعه دائماً، فإننى أود أن أتعرض لبعض أدوات وظواهر التسلط، التى قد لانشعر بها جميعاً من خلال حوارات حقيقية تدور فى المجتمع، سواء على مستوى الحوار اليومى العادى أو فى صحفنا وأحدد هنا مايلى من هذه الأدوات:

١ - «مدفعية» طرح الأسئلة أو «وابل أسئلة الأستجواب النيرانى»

ROPIDFIVE INTRROGATION

من الظواهر التسلطية الحادة فى حواراتنا هو أن يقوم متحاور متسلط، وفور ظهور طرف آخر يجيد الاقناع، وله منطق قوى فى حجته يتفق مع أصول وقواعد إقامة الحجج ومع الرجاحة والعقل السليم.. بإغراق هذا الطرف فى خضم أسئلة بعيدة عن الموضوع الرئيسى، الذى أحسن الطرف الآخر عرض موقفه ومنطقه فيه، فالإنسان غير تكون عنده القدرة دائماً على الانصياع للحجة الاقوى والإجابة عن السؤال المستلط المنطقى والأمثلة، والذى تفرضه وقائع الأحداث، والذى عادة مايكون فى صالح أطراف الحوار من الأسوياء أن يتناولوه بالإجابة، التى تؤدى إلى الحق والعدل. (والشخص السوى يقبل الحق والعدل وينصاع إليه.. أما الشخص المتسلط فهو عادة مكابر إلا وجهة نظره هو فقط، ويريد الجميع أن يقولوا «آمين» ويوافقوه ولأجل آخر غيرالموافقة: إن لم يكن يزيد كلاً من الموافقة والمديح والنفاق على رجاحة عقلة وفطنته، التى لم ترد من قبل أو من بعد.. هذه الشخصية المتسلطة تتعامل مع الآخرين، الذين تكون لهم الحجة القوية والمنطق السديد بفتح نيران مدفعية الموضوعات والأسئلة المتعددة المتدفقة، التى يكون الهدف منها تغطية وإغلاق الحوار فى ذلك الموضوع، الذى ساقه بعلمية ومنطق الطرف الآخر.. وإغراقه فى خضم أسئلة موضوعات أخرى عديدة، مع الإدعاء بأنها هى الأصل، وهى صلب الخلاف..)

وبشأن إقامة الحجج والحجج المصادرة بمكننا أن نستعرض عشرات الأمثلة التى تجسد إستراتيجية توظيف «مدفعية طرح الأسئلة والموضوعات» كأسلوب من أساليب

الحوار التسلطى. ولكن مثلما الأمر فى الحجج فإن إثارة أسئلة بعينها قد تعكس فى الإجابة عنها ظاهرة «مدفعية طرح الموضوعات» ؛ حيث يتم تجنب الإجابة عن السؤال الرئيسى، من خلال مظلة كثيفة من «مدفعية طرح الأسئلة، التى من شأنها تجنب الإجابة عن السؤال الرئيسى.. ولعلى هنا أتعرض لكثير من الأمثلة الموجودة فى مساحة تفاعلاتنا، ولكننى أفضل التركيز على مثال حديث جداً وهو من خلال:

سؤال بلا جواب عن زعيم رحل..

وأود هنا وأنا بصدد طرح هذا الحوار الحديث (القديم) الذى يدور من وقت إلى آخر فى ساحة تفاعلاتنا الثقافية، بخصوص زعمائنا الراحلين أمثال الزعيم عبد الناصر أو الزعيم أنور السادات رحمهما الله..

أود أن أقول إننى لست ـ وفى سياق هذا المقال ـ بصدد تقييم فترة حكمهم، ولكننى أود أن أركز الحديث عن لقطة توقفت أمامها كثيراً تجسد إستراتيجية «مدفعية طرح الأسئلة أو الموضوعات». فلقد أورد الاستاذ صلاح منتصر فى عموده اليومى بتاريخ ١٩٩٥/١٠/٣، بعنوان: «سؤال عبد الناصر» سؤالاً طرحته «صحفية بالأهرام» من مواليد ١٩٧٧ ؛ حيث وجهت للحاضرين فى ندوة من محبى عبد الناصر، أقاموها فى ذكرى وفاته، وكان السؤال: ماذا تعتقدون فى الرأى القائل بأن المكاسب التى حققها هذا الزعيم قد ضاعت لأنه علمكم أن تقولوا «نعم» ودائماً وكانت كلمة «لا» من الممنوعات.. فعندما جاء آخرون بعد موته، وانتزعوا منكم هذه المكاسب لم تكن لكم القدرة على أن تقولوا «لا».. صلاح أن هنا حدث هرج ومرج، وانتهت لندوة دون الإجابة عن هذا السؤال، الذى وأفاداً. اعتبر بمثابة سؤال استفزازى، إن لم يكن وقحاً وخلص أ. صلاح إلى أن رفض الإجابة عن السؤال يؤكد أن دراويش عبد الناصر قد تجمدوا فكرياً.. ولكن فى يوم ٩٥/١٠/٥ تم استئناف الحوار من قبل أ. حمد حمروش بمقال بعنوان «جواب لسؤالى عن عبد الناصر»

وحيث إن السؤال الذى تم طرحه فى عمود الاستاذ صلاح هو سؤالٌ جوهرى يتطلب الإجابة الفعلية وبموضوعية.. فإننى سارعت بقراءة مقال أ. حمروش لأستمع منه إلى الإجابة الفعلية (وهو رقم ١٤ بالقائمة) ولكننى ومع الاحترام لشخص الكاتب إلا أننى وجدته يوظف إستراتيجية «مدفعية طرح الأسئلة والموضوعات».. وهنا تجنب أ.حمروش إفادة القارىء أو المستمع للحوار عن السؤال الذى ادعى الإجابة عنه، فى عنوان مقاله: «جواب لسؤال عن عبد الناصر»..

السؤال واضح، ولكن تعالوا نرى ملامح «مدفعية طرح الموضوعات التى جاءت فى شكل سؤال استهجانى للهروب من الإجابة، وهذه الموضوعات بترتيبها فى تحليل المقال كالآتى:

١ ـ خطأ أ. صلاح فى الوقوع فى أخطاء ما كان أن يقع فيها.. حيث أنه ابتعد فى هذا العمود عن الموضوعية التى يتسم بها.

٢ ـ إن الندوة لم يقمها «محبو عبد الناصر».. بل هذ اللجنة المصرية للتضامن مع إعطاء تفصيلات عن كيان هذه اللجنة وأعضائها المشاهير، الذين يعبرون عن تيارات الأمة منذ ١٩٥٧.

٣ ـ إن الصحفية التى عرف أ. صلاح عمرها، وأنها لجأت إليه بعد فشل الندوة فى الإجابة عن سؤالها هو قول ناقص ومبتسر.

٤ ـ إن الحاضرين من العرب والأجانب والمصريين قد اعترضوا على سؤال الصحفية إلا أن د. هدى عبد الناصر طالبت بسماع الرد على تساؤل الصحفية.. وأن د. حسام عيس تولى الرد وانتهت القضية (دون ذكر أى إجابات).

٥ ـ إن هذه الصحفية ليست محررة «بالأهرام».. ولسنا نعرف إذا ما كانت عضواً فى نقابة الصحفيين أم لا..

٦ ـ إن أ. صلاح لم يستشر أياً من أعضاء اللجنة بخصوص أحداث الندوة ليتحرى الدقة.

٧ ـ إنه ما كان له أن يقول: «أنا أرفض الإجابة عن سؤال بسيط لفتاة صغيرة يؤكد أن «دراويش عبد الناصر قد تجمدوا فكرياً».

٨ ـ الاكتفاء فى نهاية المقال بتذكرة أ. صلاح بالكلمات التى أرسلها سيادة الرئيسى حسنى مبارك فى افتتاح الندوة؛ ليقتنع بأن الحديث عن التاريخ يجب أن يرتفع عن التعصب! والسطحية والمبالغة..

٩ ـ فى النهاية تضمن المقال تنو بأن أ. صلاح كان عليه أن يتخذ نحواً آخر، وأن يحسن نقد عمل اللجنة بدلاً من اللجوء إلى هذا الأسلوب الذى ماأظن أنه يرضى عنه...»

نحن وبعد تحليل لمسار الموضوعات، التى وردت بمقال أ. حمروش، أجد أن السؤال الذى طرحته الصحفية المزيفة أو الأستاذ صلاح «الذى لم يكن موفقاً ـ حسب تقييم أ. حمروش ـ لم تتم الإجابة عنه.. فالشعوب التى تستفاد من دروس التاريخ بالتحليل الموضوعى، كما أفادت رسالة الرئيس حسنى مبارك لأعضاء لجنة التضامن، تحتم أن نهتم بأولويات الطرح.. أى حين يكون الموضوع «سؤال عن عبد الناصر»، وكان السؤال واضحاً فى مقال أ. صلاح منتصر، وأحسب أنه سؤال فى غاية الأهمية، وينبغى أن نجيب عليه نعرف. الإجابات المختلفة حوله لنستفيد من هذه الإجابات فى حاضرنا

ومستقبلنا، وحتى لاتتكرر أخطاء زعمائنا الذين هم بشر مثلنا يصيبون ويخطئون.. كان للأستاذ حمروش فى مقالة بعنوان «جواب لسؤال عبد الناصر» ألا يوظف أسلوب «مدفعية طرح الموضوعات (الأسئلة) التى من شأنها إدانة أ. صلاح وتوضيح الموقف السامى والأخلاقى للجنة والقوة التى تستمدها من كيان اعضائها البارزين جداً، وينتهى إلى تنبيه بألا يقع فيما وقع فيه، دون أن تكون هناك أى محاولة للإجابة عن السؤال الرئيسى وجوهر الموضوع!!

التعمد من عدمه فى استخدام «مدفعية طرح الموضوعات»

إن مشكلة التفاعل القائمة فى واقع حواراتنا بخصوص كافة ظواهر الحوار أنك قد لاتعرف ـ وعلى وجه الدقة ـ إذا ما كان هذا المتحاور يوظف أدوات أو ظاهرة الحوار الفلانية عن عمد أو بطريقة لاشعورية.. وبخصوص «مدفعية طرح الموضوعات والأسئلة»، فلقد وجدت فى أحيان كثيرة أن المتحاور لايوظفها عن عمد، ولكنها أصبحت ـ ومن كثرة هيمنة أدوات التسلط فى الحوار ـ تمارس من قبل البعض بشكل لاشعورى، وهنا تكمن المشكلة.. ولكن هذا البعد يمكن علاجه.

الشخص المتسلط فى ذلك لأن مبدأ التعاون الضرورى لإنجاح الحوار، يكون قد تم العصف به... ولعل مانراه فى برامج تليفزيونية يؤكد ذلك حينما يحاول أحد المذيعين إلقاء سؤال يحمل فى مفرداته الإجابة المرجوة، وإذا كانت إجابتك مخالفة يحذف المشهد برمته. وفى هذا الإطار تأتى أيضاً مقال الكاتب أحمد بهجت بعنوان السؤال الجائر حيث يذكر مشاهد من انتخابات كيم أيل سونج التى انتهت بفوزه بنسبة ١٠٠٪ أو انتخابات حاكم العراق التى أنتهت بنفس النتيجة، وكأن السؤال المطروح فى إطارها ليس هل تنتخب فلاناً أم لا.. بل هل تريد الحياة أم لا ولكن بشكل مغلف.

٢ ـ إستراتيجية أسئلة ترسيخ القائم:

من أدوات التسلط الشائعة فى حوارتنا الإسراع بتوظيف أدوات الحوار الخاصة بترسيخ ماهو قائم فى مجال أو ممارسات معينة بمجرد محاولة تغييرها، أو حتى بمجرد اشتمام رائحة إثارة الأسئلة بإمكانية وأهمية تغييرها.. ففى حالات التفاوض الاجتماعى، إذا ماقلت مثلاً: ما لزوم هذا البذخ والموسيقى الصاخبة التى تطيح بأجهزة مكبرات الصوت «الأمْبِلْفَيَر»، التى أصبحت عرفاً وتقليداً مستمراً فى الأفراح بفنادقنا الكبرى.. وحاولت أن تطلب خفض الصوت؛ حتى تكون الموسيقى مسموعة بشكل يجعلك تستمتع بها ولاتنزعج إذا كنت تتمتع بالصحة، ولاتصاب بأذى إذا كنت ممن يعانون من أمراض القلب أو السمع.. تجد الذين «يرسخون القائم» ينقضوا على طلبك بالإجابة ده فرح.. والفرح كده.. وكل مناسبة وحضرتك طيب.. وإذا كان المتحدث من نفس هذا النوع من الأقرباء لديك تجده مثير سؤال آخر يتحداك به يقول: «أنت حتغير الكون؟! هل نويت العكننة؟.. أما إذا كان الحوار عن كنترول الجامعات،

كموضوع من موضوعات التفاوض الإدارى المهمة التى ينبغى معالجتها لما لها من آثار سيئة للغاية على تحقيق التقدم فى المجال الأكاديمى الحيوى واللازم لقادة عملية التنمية.. فإذا ماشقت سلبيات هذا النظام الراهن الذى يعتبر أكبر عوائق تطوير التعليم وأبسط الأسباب أنه كنظام يبدو أكثر من ٦ أشهر من العام الأكاديمى دون مبالغة.. وأنه أنشىء عام ١٩٢٥ ولايصلح مطلقاً لأسباب كثيرة، سقنا التفصيلات الخاصة بها فى بحث علمى مفصل(٣٠).. نحد من يرسخون القائم.. لايطلعون على هذا البحث أو يقيمون الممارسة بموضوعية، بل يبادرون بشن هجوم مضاد.. راجع مثالاً على ذلك مقال بالأهرام تجسد أفكاره ظاهرة أخرى، وهى:(٣١)

٣ - إستراتيجية أسئلة اختزال الحقائق:

هنا يقوم المتحدث باختزال الحقائق وقصرها على مالا ينطبق عليها، وعادة مايحاول جذب أراء الآخرين الذين لم يلاحظوا حقيقة الأمور، أو يريدون غض الطرف عنها.. كأن يقول لك.. وما هذا الذى تقيم الدنيا وتقعدها عليه؟.. إن نظام الكنترول القائم مجرد عملية إدارية ـ مجرد إدارة للامتحانات مثله فى ذلك مثل المرافق والميزانيات ما إلى ذلك.. فما هذه الجلبة؟!

وهنا يختزل هذا المتحاور حقيقة أن نظام الكنترول القائم يمثل وعاًء تتلاقى فيه قضايا عديدة، مثل تقييم الطالب وأداء الأستاذ والمنهج والعملية الإدارية بين الأستاذ والإداريين، وعملية إدارة الوقت فى السياق الأكاديمى.. يتجاهل كل ذلك ويختزل مفهوم كنترول على أنه مجرد عملية إدارية لاصلة لها بالبنية المركزية للتعليم الجامعى؟!

٤ - استراتيجية أسئلة الشك الصحى الزائف:

هذه الإستراتيجية أكثر أدوات التسلط إختفاءً فى الحوار.. حيث يحاول المتحاور المتسلط إظهار قدرته على تفنيد الحجج بغية الوصول للحقيقة، وحتى الانصياع لوجهة نظر قد تكون صحيحة، وذلك من خلال ما يعرف فى عناصر الحجج بإلقاء الشك الصحى Healthy doubt, وهذا عادة ما يتضمن أن يتشكك المحاور فى صحة منطلقاته وحججه وصحة أسئلته بغية فى التواضع وعدم التسلط؛ وصولاً للرأى الأصوب. ولكن هناك البعض الذين يجيدون ما أسميه «بإثارة سؤال الشك الصحى الزائف».. أى يظهرون شكلاً من أشكال الشك الصحى فى قوله مايتعارض مع عنصر من وجهة نظرهم، التى أعلنوا عنها بحيث يكون هذا العنصر «كبش فداء»؛ أى يمكنهم التضحية به والتراجع عنه بشكل افتراضى على سبيل إبعاد شبهة التسلط عن تناولهم، ولكنهم سرعان مايوظفون هذا الأسلوب بشكل تكتيكى فقط يساعدهم على ترك إيحاءات وهمية لمن يشهد أو يستمع للحوار، ولكن بهدف التأكيد على عموم توجههم وجوهر وجهة نظرهم، التى لايتخلون عنها، بل يسعون لإثبات صحتها مهما جاء من أدلة ومعلومات تجعلها باهتة وضعيفة..

ولتوضيح ذلك أعود للقارىء بمثال حى من واقع التفاعلات.. فحينما اقترحت طرح فكر وثقافة التفاوض الإيجابى من خلال مادة، تطرح على طلاب المراحل المختلفة، وذكرت أنها تحتاج إلى أرضية معينة تنمو فيها وهذه الأرضية التى يقيم عليها صرح كنترول الجامعات الأم لاتصلح لنمو هذه الثقافة، وذلك ببساطة لأن كنترول الجامعات والتفاعلات التى يخرجها وتحدد أطراً عديدة للسياقات التركيبية للتفاعل، تؤكد على الشمولية والتسلط والتلقين.. تجد هذا المتحاور الذى انبرى للتصدى والدفاع عن نظام الكنترول يوظف أداة «الشك الصحى الزائف» (وربما بشكل لاشعورى) كنقطة انطلاق لمزيد من التأطير والاختزال؛ حيث تجده يتساءل (على سبيل الشك الصحى «الزائف») وبشكل من تهكم الاحتواء «وإذا أخذنا بصحة القول بأن هذا الكنترول «غول»، ثم ينتقل إلى طرح أسئلة تهكمية ما تعكس عقلية التسلط؛ حيث يمرح ذلك المتحاور متسائلاً..» وهل سيكون لهذه المادة كنترول ومكانة خاصة؟! وهل تعتبر الدواء الشافى لكل معضلات البنية المركزية؟!.. حتى إن سيادته يقول فى نهاية مقاله: «وكيف لسيادتكم أن تتصور وببساطة أن مجرد إضافة مادة جديدة، كفيل بتطهير تلك البنية المركزية من كل أعطالها؟!»

وهنا نلاحظ أن هذا المتحاور يحاول تأطير فكر المتحاور الآخر، الذى يقترح «مادة ثقافة التفاوض» بالتبسيط المخل، الذى يتناقض وروح العلم الرصين!!

٥ ـ استراتيجية أسئلة التأطير المتعسف

Hasty framing

من أكثر أدوات التسلط شيوعاً هو تأطير مقولات الطرف الآخر، كما حدث فى آخر فقرة بالمثال أعلاه، ولكن الخطورة الحقيقية فى واقعنا تكمن فى استخدام أداة تأطير الأشخاص، وهذا يتجسد فى مقولة محاورنا السيد عميد كلية التربية النوعية، الذى يقول فى تفنيده للانتقادات التى أوجهها إلى صرح كنترول الجامعات الراهن، الذى تم ترسيخه منذ عام ١٩٢٥ فى جامعاتنا.. يقول سيادته شيئاً خطيراً لم أذهب إليه، وذلك من خلال سؤاله القائل: «لماذا تتصور بنية التعليم المركزية والعاملين فيها عملاء ترسيخ وتمسك منقطع النظير بتلك الأفكار السلبية، التى ترى أن النظام التعليمى قائم عليها؟!»

وطبعاً أنا لم أتعرض للأشخاص فهذا السؤال من شأنه التحريض وتعبئة آخرين، ليس فقط ضد مايقترح، بل ضد الشخص المقترح ذاته.. فهذا سؤال تسلطى خطير ومن الطريف أننى لم أستخدم كلمة «عملاء» التى أوردها هذا المتحاور.. ومن الأطرف أننا نلاحظ تشبع سيادته بتوظيف هذا التعبير، الذى تشبع به كثيرون من خلال بعض النظم الشمولية / الديكتاتورية العربية التقليدية، والتى تجاوزناها فى كثير من البلدان العربية اليوم. ومن الطريف أن مثل هذه النظم الشمولية التقليدية قد أثرت إلى اليوم على

استخدام الحوار من قبل كثيرين، ممن لايريدون أن يتخلصوا منها إلى اليوم.. فتعبير «عملاء» هذا من أسهل التعبيرات التى كانت ولاتزال تستخدم لتأطير الخصوم والمخالفين فى الرأى، تمهيداً للانقضاض عليهم «وتصفيتهم».. كذلك فإن القارىء المتنبه لتأطير آخر غير عادل.. وهو بأننى أصف «كل العاملين» الذين أكن لهم كل الأحترام والتقدير بأنهم «عملاء» !![٣٢].

كان ماسبق إشارة مستفيضة لعلاقة الأسئلة على وجه الخصوص بفعل القول الخاص بمفهوم التسلط وسماته وأدواته الخفية.

لاشك أن هناك عديداً من الأمثلة التى تجسد فكر التسلط وممارسته وآلياته فى الواقع الغربى، وهو ماأشرنا إليه أننا.. ومن بين مايهمنا التركيز عليه هنا هو ذلك الخلط، الذى أصبحت وسائل الإعلام الغربية نقوم بترديف كلمات «عربى» «مسلم» «إرهابى» و«أصولى».

وفى الواقع فإن كلمة «أصولى» و«أصوليات» قد ألحق بها عديد من المفاهيم السلبية، التى لاينبغى وأن تكون؛ فكلمة الأصولية تعود للأصول.. وهناك أصول دينية Fundamantals of Religion كأى أصول مثل «أصول علم الهندسة» أو علم الأحياء وخلافه.. وعندنا فى أزهر مصر الشريف توجد لدينا «كلية أصول الدين»، وفى الحوار الاجتماعى نجد أن من أكثر التعبيرات المعيارية الشائعة هى أن «فلان يفهم فى الأصول»، أو «أنه لايفهم أو يراعى الأصول»..

وسوف أسوق فى سياقنا هذا بعض الأمثلة، ذات العلاقة بمفهوم التسلط من واقع ملفات الحوار العربى الأوروبى / المتوسط.

قل «متوسطياً» ولا تقل «عربياً»

قابلت أحد المسئولين البريطانيين لتعرف وجهة نظر إنجلترا فى «الحوار العربى الأوروبى»، وفوجئت به يقول من الأفضل أن نستخدم تعبير «الحوار الأوروبى المتوسط».. فتعبير «الحوار العربى الأوروبى» لاوجود له، فضلاً عن أنه فشل، وأنه تعبير يثير الأحزان وعدم الرضا من قبل الأوروبيين.. وبالفعل فإن كل الحوارات المشاركة مع أوروبا لم يتردد من خلالها تعبير الحوار العربى الأوروبى، الذى بدأ عام ١٩٧٣ عقب حرب أكتوبر رمضان المجيدة. وبالطبع فإن الإصرار على أن يكون الحوار أوروبياً متوسطياً فيه كثير من لغة الفرض والهيمنة وتحديد الأجندة بمافيها العنوان، حتى وإن كان الحوار فى جوهره لايزال شاء ذلك أم أبى أى طرف ـ هو حوار عربى أوروبى فى المقام الأول ـ وإذا كان لتعبير حوار عربى متوسطى أن يعنى إدراج دول مثل إسرائيل وتركيا وإيران فى الحوار، فهذا لايمثل مشكلة لنا، طالما أن الهدف هو البناء والعمل الجماعى من أجل السلام والاستقرار والتنمية ولكن أن تكون أجندة تسمية الحوار للإجهاض

على النظام العربى وإلغائه، فهذا مايمثل تجسيداً واضحاً لممارسة التسلط وأدواته فى الحوار.

«المنولوج» وليس «الديالوج»

إن تعبير «المنولوج» عادة مايثار فيما يتعلق بخصوص تفاعلاتنا العربية، التى ينتقدها الأوروبيون حينما يقول البعض (ومن واقع تفاعلات الحوار العربى الأوروبى) إن المشكلة فى التواصل مع العرب أن الحوار «الديالوج» يصبح عادة «منولوج»، أى حوار من جانب واحد والمهم هنا ألا نتجاهل هذا الوصف، بل علينا أن نعمل على تغييره، فالحقيقة أن التواصل بيننا كعرب بحاجة إلى ثورة فى المفاهيم والأسس والمنطلقات، لصالح هذه الأمة ولصالح تكتل عربى (يقاوم نظرية التنقيب بكل أشكالها..). كذلك فإن شق التفاوض الآخر فى إطار البعد الثقافى، هو أن هناك البعض على الجانب الآخر ممن يمارسون أسلوب «المونولوج»، وهو ليس صفة عربية فقط، ولعلنا بحاجة إلى وقت لإزالة روح «المونولوج» على الجانبين وبشكل عقلانى وعلمى ولعل من أهم ملامح «المنولوج» (التسلطى) الأوروبى، هو ذلك النمط الذى أسميه «نمط الحوار»- الاسلام ونحن:

ونمط هذا الحوار مشتق من عديد من المقالات والمقولات فى الأعلام الغربى، الذى يؤكد «نظريات» هانتجتون وأمثاله بطريقة أو بأخرى، باعتبار أن الإسلام هو العدو الأخضر (Green periL)، وبالتالى وجب تشويه عن عمد أو عن غير عمد بجهالة حتى يكون مصدراً لاستنفار العداء، وعلى سبيل المثال لا الحصر كتب جون مونرو مقالاً حديثاً فى مجلة الميدل تايمز بعنوان Islam&us [٣٣]، وتحت هذا العنوان مارس هذا الخلط المتعمد بين «الإرهاب» و«الأصولية» و«الإسلام»، بل إنه يؤيد تشجيع أمثال سلمان رشدى لأنه يعتبره الجزىء، الذى يمثل خط الدفاع الأول ضد «الأصولية الإسلامية»!!؟

إن هذا التصور وتصوراً آخر كالذى طرحه الفيلسوف الفرنسى أرنست رينان من التصورات الكفيلة بتأجيج الصراع على محور البعد الثقافى ـ فلقد قال رينان وبوضوح تام «إن الإسلام هو ماتتفاوض عليه أوروبا.. فالإسلام هو التعصب، وهو احتقار العلم وهو تهديد للمجتمع المتحضر.. وهو التعبير عن التبسيط المفرط للعقل الشرقى، وبالتالى فإن المستقبل لأوروبا التى عليها أن تنشر دينها، وهو قانونها وحريتها واحترامها وحريتها واحترامها للإنسانية!!؟»[٣٤]

إن وجود كل هذه التصورات الزائفة سواء عن جهل أو عمد بخصوص مايتعلق بالبعد الثقافى؛ خاصة فيما يتعلق بصورتنا فى مخيلة كثيرين فى العقل الأوروبى لاتستدعى الإدانة بقدر ماتستدعى العمل الدؤوب واللياقة الذهنية والحركة الفعالة؛ لتصحيح كثير من المفاهيم الخاطئة، وكذلك لوضع أمور هذا البعد على وجه الخصوص فى نصابها، فهذا البعد الثقافى هو الأولى بالرعاية من أطراف التفاوض؛ لأنه

يمثل الإطار المرجعى للبعد الاقتصادى، وهو بحاجة إلى معالجات تواصلية تقنية ومستمرة، ليس فقط بين شمال المتوسط وجنوبه، بل بين الشرق والغرب.. وإن مصر هى الدولة الأكثر تأهيلاً لتأخذ على عاتقها إدارة الاختلافات الثقافية لصالح هذا العالم، وإن لأزهر مصر أن ينطلق إلى آفاق تقنية جديدة، تتناسب وحجم التركيب والتعقيد فى عملية التواصل فى عالم اليوم، وتتناسب ودور الأزهر الشريف على مدى تاريخه الحافل وريادته فى العالم العربى الإسلامى.(٣٥)

التطرف القادم من الخارج وكيف نواجهه!

أما الشق الآخر من الأمثلة التى تنتمى لتفاعلات الواقع الغربى فهو ما أوردته فى المقال التالى بعنوان «التطرف القادم من الخارج»، وكيف نواجهه (الأهرام ١٩٩٢/٢/١٩).

كثر الحديث عن ظاهرة التطرف الدينى، وتناولها المفكرون بالتحليل، واستقر الرأى على أن فتح باب الحوار واستخدام المنطق والحجة والموضوعية فى الحديث من قبل علماء الدين والاجتماع يمثل أفضل الوسائل لاحتواء الآثار السلبية الكبيرة الناتجة عن ممارسة هذا النوع من التطرف، داخل مجتمعنا وماتمثله هذه الآثار السلبية من تهديد للأسس اللازمة للبناء والتقدم.

فإذا كان لهذا الأمر مايتطلبه من إعداد مناسب، وتحرك واع مدرك لأبعاد الموقف بالكامل كشرط أساسى للنجاح فى مواجهة واحتواء الآثار السلبية للتطرف على المستوى الداخلى.. فإن الأمر يستلزم نوعاً آخر من الإعداد والتحرك إذا مانظرنا إلى ذلك التطرف القادم من الخارج وحجمه الضخم والمتمثل، ليس فقط فى وزارة شامير المتطرفة وممارساتها العدوانية اللاإنسانية الخطرة، بل والمتمثلة أيضاً فى حركة من أسموا أنفسهم «بالمسيحيين الصهاينة» Christian Zionists ، والذين يتزايد عددهم داخل الولايات المتحدة، ويقدر الآن بأكثر من أربعين مليون نسمة، والذين يمثلون فى واقع الأمر وقوداً ضخماً لتطرف شامير وأمثاله.. والمتتبع لممارسات هذه الحركة يجد أنها تنجح يوماً بعد يوم فى تحقيق الأهداف التى وضعتها منذ قيامها، ومن بينها هدم المسجد الأقصى فى نهاية الأمر، وإقامة المعبد اليهودى على بقاياه. ولقد نبه عديد من الكتاب المسيحيين فى الغرب من أمثال جريس هيلسيل، ودونالد واجنر وجودمان سميث إلى خطورة هذه الحركة، وابتعادها كل البعد عن المفاهيم الحقيقية لرسالة المسيح عليه السلام، ونادى هؤلاء الكتاب بنزاهة إلى خلق موقف، يقوض من ممارسات هذه الحركة التى تقدم كل العون لحركة التطرف داخل إسرائيل. إن أعضاء هذه الحركة يؤمنون إيماناً مطلقاً بأن اليهود هو شعب الله المختار الذى منحه الله الأرض المقدسة. وبما أن اليهود هم شعب الله المختار فإن الله سيبارك كل من يبارك اليهود، ويلعن كل من يلعنهم، وبالتالى

فإنهم يؤيدون كافة ممارسات إسرائيل الدموية والإرهابية، ويشجعون إسرائيل على احتلال المنطقة من النيل إلى الفرات؛ أى احتلال خمس دول عربية الأقل من منطق تحقيق النبوءة التى يؤمنون بها.

وكذلك فإنهم يؤيدون أى سياسة أمريكية، من شأنها توريط العالم فى محرقة نووية. وهنا طبقاً لهؤلاء المسيحيين الصهاينة، يعود المسيح عليه السلام إلى الأرض ثانية، وينجو بأعضاء هذه الحركة من الفناء، ويصعد بهم دون غيرهم إلى السماء من أرض الناصرة بفلسطين. إن خطورة هذا الأمر تنبع من العدد الكبير لأعضاء هذه الحركة، وبداية تغلغلهم فى نسيج صناعة القرار الأمريكى بشكل ملحوظ، ومما هو جدير بالذكر إن الرئيس الأمريكى السابق رونالد ريجان قد صرح بإيمانه الشخصى بمبادىء هذه الحركة، وقد أدلى بذلك فى حديث له عام ١٩٧١، وورد بكتاب جريس هيلسيل بعنوان «السياسة والنبوءة والطريق إلى الحرب النووية».. فلا غرو إذاً فى أن أكبر إتفاقية للتعاون العسكرى الاستراتيجى بين الولايات المتحدة وإسرائيل فى عهده، كذلك اتسمت سياسة الولايات المتحدة فى عهده بتبنى سياسات قدتمت العنف فى معالجة عديد من المشاكل الدولية. كذلك فإنه من الخطورة بمكان أن على رأس هؤلاء المسيحيين الصهاينة عدداً كبيراً من الوعاظ المشهورين، الذين يستحوذون على شعور ملايين الأمريكيين وينالون إعجابهم، حتى بعد أن تعرض بعض هؤلاء الوعاظ لفضائح أخلاقية ومادية فى السنتين الماضيتين، ومن هؤلاء الوعاظ جيمى سواجرت، جيم بيكر وركسى هامبرد، وبات روبرتسون وجيرى فالويل.

لقد أنشأ هؤلاء المسيحيون الصهاينة ما أسموه «بمؤسسة بناء المعبد» ولهذه المؤسسة فروع متعددة فى الولايات المتحدة وإسرائيل. والهدف من ذلك أن يرضى هؤلاء اليهود الله حسب روايتهم.إن لهؤلاء المسيحيين الصهانية أموالا طائلة، توضع تحت تصرف الإسرائيليين. ولقد صرح القس جيمس هيوستن بأنه ومعه آخرون قد قاموا بحملة لجمع الآلاف من الدولارات للدفاع عن بعض الإسرائيليين، الذين وجهت إليهم تهمة الهجوم على المسجد الأقصى عند حرقه فى أغسطس عام ١٩٦٩، وكذلك قال فالويل، أحد أقطاب «حركة المسيحيين الصهاينة» فى حفلة تكريم أقامها لموشيه ارينز وأريل شارون أنه من الأخطاء التى وقعت فيها الولايات المتحدة أنها تدخلت لوقف مذبحة الفلسطينيين فى لبنان، والتى وقتل وجرح فيها عشرات الآلاف من الفلسطينيين واللبنانيين، وذكر أنه على الولايات المتحدة أن تؤيد إسرائيل تأييداً كاملاً فى أى حرب قادمة «لتمحو الأعداء»، وعندما قال ذلك صفق له الحاضرون بكل الحماس وهتفوا «آمين» «هاليلويا».

إن تأثير جماعة المسيحيين الصهاينة على الرأى العام والحكومة الأمريكية فى تزايد مستمر مع الأسف الشديد، ولقد زاد التأييد لإسرائيل من قبل هذا الاتجاه الدينى المتطرف للغاية، والذى نستغله جماعات الضغط اليهودية فى تعبئة وشحن الأمريكيين لتبنى قضيتهم.. الآن لمعطيات الصراع الإسرائيلى ذلك التعاون الوثيق بين هؤلاء المسيحيين الصهاينة والمسئولين الإسرائيليين فى مجال وضع السياسات التنفيذية، وتعبئة الشعب الأمريكى كله فى المستقبل، حول أهداف حركة المسيحيين الصهاينة والتطرف الإسرائيلى. ومما هو جدير بالذكر أنه عند زيارة أى من أعمدة حركة المسيحيين الصهاينة لإسرائيل يستقبل على أعلى المستويات الرسمية هناك، ولقد بدأ هذا التقليد عندما استضاف مناحم بيجن فى منزله القس دفيد لويس، طوال مدة زيارته لإسرائيل. ونجد أثر هذه العلاقة متجسداً فى ممارسة الضغط على الإدارة الأمريكية، وفيما يصدر سياسياً على الصعيد الأمريكى. ويتخذ التعاون بين حركة المسيحيين الصهاينة وإسرائيل شكلاً متصاعداً منذ عام ١٩٨٣، حين أعلن عن تكوين المؤتمر التضامنى بين المسيحيين الصهاينة واليهود AFFICC، والذى أوصى بدعم مفاهيم المسيحيين الصهانية على مختلف المستويات فى الولايات المتحدة ووضع الخطط الخاصة بذلك.

إذاً فإننا فى نهاية الأمر بصدد مجابهة نوعين من التطرف: أحدهما من الداخل قادم من الخارج، فعلى الصعيد الداخلى يجب تعميق الإحساس بمفهوم الثقافة الجامعة؛ بحيث لايكون هذا المفهوم مجرد كلمات جوفاء، يستخدمها البعض، هذا بالإضافة إلى الإعداد الجيد والاستخدام الأمثل للغة الحوار لاحتْواء الآثار السلبية للتطرف، ومن هنا وجب فتح قنوات التعبير وأبواب المشاركة للجميع بصورة أكبر وأعمق، دون قصر ذلك الأمر على فئة وحجب فئة أخرى، من ذوى الكفاءات العالمية بالوطن.

أما على الصعيد الخارجى، فيلزم مع ضرورة تعديل صورة الأوضاع التفاوضية الداخلية بين عناصر الأمة كما ذكر أنفاً، أن يقوم المفاوض الذى يمثل الواقع العربى والإسلامى على المستوى الدولى بتعبئة الرأى العام العالمى؛ لمجابهة ذلك التطرف الدينى المتمثل على الحق والعدل هو تتفق عليه كافة الأديان السماوية فى حقيقتها. ولكن واقع الأمر الآن يقول إن التطرف القادم من الخارج يرى التأييد من بعض القوى المعادية والمعرضة للاستقرار والتنمية بمنطقتنا. إذاً فإن هذا التطرف لن يتم كبحه واحتواؤه فى غياب الاستراتيجيات الفعالة من جانبنا؛ لمواجهته بحسم وعقلانية. وها هى الأوضاع تتدهور فى منطقتنا يوماً بعد يوم؛ مما ينبثق عنه وضع عالمى غاية فى التناقض، ففى الوقت الذى يدخل فيه العالم كله مرحلة مايسمى بالقرية العالمية؛ حيث تسود التسويات السلمية ونظريات «اكسب اكسب» بدلاً« من اكسب كل شئ أو اخسر كل

شيء » نجد أن هنـاك ممارسـات فى حالة عـدم الاستقرار؛ لتفويت فرص التقدم والبناء عليه. ومن هنا كان على ذلك المفاوض الممثل للواقع العربى الإسلامى أن يسرع فى توظيف تلك الاستراتيجيات الفعالة، التى تلزم المجتمع الدولى بالدخول فى معاهدات واتفاقيات مبناها الالتزام المتكافىء والعـادل بين كافة الأطـراف للحد من ذلك التطرف.

القسم الثالث:

"ثقافة التفاوض" كبديل لخطاب التسلط وكمفهوم محور للتعليم فى القرن القادم

لابد فى البداية أن أوضح ما أعنيه بتعبير «ثقافة التفاوض»، وذلك لأن التعبير لايزال يثير معانى متفاوتة فى واقعنا الثقافى، وحتى على مستوى تفاعلات النخبة. ومعظم هذه المعانى أو التفسيرات تخل بمعنى التعبير، وأود أن أتعرض هنا للتصورات القاصرة عن التعبير؛ فالبعض يتصور أن هذا التعبير «آداب الحوار» فقط، والبعض الثانى يتصور أنه كلام فى السياسة فقط، وهنا ينقض البعض ليصبغ المفهوم «بالميكيافيلية» والانتهازية، ومن ثم فإن المفهوم «بعيد عن قيمنا الإسلامية والعربية الأصلية»!! وينقض البعض الآخر ليشير أننا لانملك المصادر الكبيرة والقوة اللازمة للتفاوض فى عالم اليوم، ويقول: «تفاوض إيه واحنا بهذا الضعف ولم تكتمل قدرتنا» إذاً فالتعبير عندهم مجرد مصطلح «فضفاض» لا أكثر ولا أقل، وآخرون تصوروا أنه قطيع مع الماضى!. من هنا أجد أهمية مناقشة معانى التعبير على النحو الدقيق والمقصود به، ولكن أيضاً بهدف الحديث عن تطوير التعليم، وزرع مفاهيمه فى العملية التعليمية والإعلامية على وجه الخصوص، وذلك من منطلق أن عناصر «هذه الثقافة» وتوجهاتها هى السبيل لاحتواء ملامح ثقافة التسلط والتلقين والتصنيف المسبق والتعسف والتبسيط المطلق والمخل، وعديد من سلبيات تفاعلاتنا.. كذلك فهذه الثقافة هى اللازمة للانطلاق نحو آفاق المستقبل بعقلية عملية نقدية، تتعامل مع معطيات ومتغيرات هذا العصر المركبة، ومن هنا نشير إلى المستويات التالية للتعبير:

(١) «ثقافة التفاوض» لاتعنى «آداب الحوار» فقط:

فى أكثر من سياق أجد خلطاً كبيراً بين المفهومين سواء، على مستوى أساتذة بالجامعة أو فى سياقات أخرى، كان آخرها أن أحد المحررين بإحدى الصحف الكبرى قد شطب التعبير واستبدله بتعبير «آداب الحوار» حيث لاح وبشكل يقينى أن التعبير

مجرّد «فزلكة علمية» مصطلحات دون داع، وهنا أوّد القول بأن «آداب الحوار» وقواعده الأساسية شئ لاغنى عنه فى عملية التفاوض الإيجابى، ولكن هذا يدخل فى إطار مايسميه خبراء علم اللغويات الاجتماعى Soeiolinguistics بالمبدأ التعاونى، وهذا المبدأ هو الذى احتل معظم اهتمامات الباحثين إلى أواخر الثمانينات فى هذا المجال.. ولكن جوهر عملية التفاوض يدخل فى باب آخر، يطلق عليه الخبراء تعبير «المبدأ التنازعى» (Adversative principle)، وهو أقرب إلى مفهوم «الجدل»، والذى يتوقف أساساً على طبيعة المتحاورين.. فقد يكون من منطلق نفى الآخر والإساءة إليه، وهذا من ينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ومن الناس من يجادل بغير علم..﴾ وقد يكون من منطلق الوصول إلى الأفضل دون الإساءة، وهذا ينطبق عليه قول الحق سبحانه وتعالى عن ﴿فجادلهم بالتى هى أحسن﴾، وفى الحالتين تتصارع أجندات المتحاورين ومراميهم الإقناعية؛ وهو الأمر الذى يستدعى الإلمام بتقنيات وأساليب واستراتيجيات التفاوض ومبارياته الحسابية، والتى تندرج أساساً تحت باب «المبدأ التنازعى» إلى أن يحقق طرف مافى أجندته، أو تصل الأطراف إلى نوع من المقايضة أو الاتفاق أو الحل الوسط أو إلى طريق مسدود.. كذلك تختلف مباريات التفاوض باختلاف نوع التفاوض.. ليس فقط من حيث كونه سياسياً أو اجتماعياً أو قانونياً أو تجارياً.. إلخ.. ولكن فى نوعه من حيث كونه تفاوضاً أو تساوماً إعادةً هيكلة للموقف برمته فى حالة التفاوض غير المتكافىء أو تفاوضى «تمديد» أو «تطبيع» أو «ابتكارى» أو «استكشافى»، ولقد أوضحت هذه الأنواع بالأمثلة التوضيحية فى سياقات سابقة، منها مقال بعنوان «مصر ومعركة التفاوض مع صندوق النقد» (الأهرام ٩٤/٧/٢٨).

(٢) «ثقافة التفاوض» ليست كلاماً فى السياسة فقط:

نعم مفهوم «ثقافة التفاوض» لابد وأن يعنى تفاوضنا مع الآمم الأخرى سياسياً وفى كل المجالات بكل تأكيد.. ولكن ليس هذا هو الأمر فقط.. فإننى أرى أننا بحاجة ماسة وأكبر لتوظيف معطيات المفهوم فى سياقات تفاعلاتنا الداخلية، فهى سبيلنا إلى خلق روح العمل من خلال الفريق الواحد، وهو الأمر المفتقد إلى أبعد الحدود فى واقعنا. وثقافة التفاوض هى سبيلنا كذلك إلى الوصول الحثيث والعلمى إلى أرضية مشتركة، يتحقق من خلالها الكسب المتبادل ونبذ التناحر والعنف، وتجنب الحصول على المكاسب على حساب بعضنا البعض «دون تهاون أو ازدراء».. إذاً فالتفاوض الإيجابى هو منهج تفكير علمى، يجابه منهج تكفير متعسفاً، ويجابه تلك المناهج المبنية على إثارة المخاوف والشكوك دائماً وأساساً وترسيخ حالة من اليأس، والتنافر من الاضطراب، والتخندق خلف خطوط ومعسكرات حقيقية أحياناً ووهمية فى أغلب الأحيان.. فثقافة التفاوض هى إذاً ثقافة لابد وأن تختفى بممارستها مانراه على صحفنا من مقالات تكتب فى مساحات كبيرة، ونرى من خلالها مناورات كمناورات القتال الجوى.. فالكاتب أو التيار هذا يدور ويلف لينقض من أعلى على الكاتب أو التيار الآخر الفلانى، أكثر من الدخول فى لب قضايا بعينها بعيدة عن هذه المناورات القتالية، التى

أطلق عليها خبراء عالم اللغويات الاجتماعي تعبير «مطارحات القتال» الجوى «التناحرى» (Dog Fight Discourse)

لمزيد من التفاصيل، راجع كتاب مقدمة فى علم التفاوض الاجتماعي والسياسي لكاتب السطور ـ عالم المعرفة ١٩٩٤.

(٣) «ثقافة التفاوض» تعنى البحث فى سيناريوهات المستقبل:

هناك مستوى آخر من المعانى يرتبط بالتعبير، «فثقافة التفاوض» تعنى الحاضر والمستقبل فهى ترسخ «المبدأ الديناميكى» فى التفاعل وهذا يستلزم إعداد وتوقيع سيناريوهات مستقبلية بخصوص القضايا الحيوية اللازمة لتقدمنا، وهذا لايعنى وضع سنياريوهات فقط وبشكل استاتيكى، كما يحدث أحياناً بل الأهم هو التمرس على هذا الأمر من باب اكتساب حسن التوقع والقدرة المرنة على الاستجابة الإيجابية والسريعة مع الأحداث لما فى صالح أجندتنا الاستراتيجية، وهنا لابد وأن نرصد أهم مايتمخض عن هذه الثقافة من تعبيرات، لابد وأن تنتقل إلى واقع ممارستنا التعليمية وهى:

(Simulation) أى المحاكاة.. أى تصور دقيق لموقف ما من أجل التعامل الإيجابى والعلمى عند دوثه.. ووضع التصورات والبدائل له..("Alternatives","Imaging") ، وهنا نجد مثل هذه التعبيرات وغيرها من التعبيرات المماثلة الأخرى قد أصبحت شائعة فى واقع الممارسات التعليمية فى الدول المتقدمة، وهو الأمر الذى لابد وأن تأخذ به فى نظامنا التعليمى. ولمزيد من المراجع الهامة فى هذا الصدد، نشير إلى كتاب عقل المستقبل والذكاء الصناعى لكاتبه Geromc GLenn. (لدور النشر Acropolis Books، وكتاب بعنوان «التعليم للقرن الواحد والعشرين» لدور النشر Routledge ١٩٩٣ ولكاتبه Hedley Bease [٣٦] وهنا أتوقف لأعبر عن اندهاشى لسؤال سأله لى جيروم جلن صاحب كتاب «عقل المستقبل» فى زيارة لمصر، منذ فترة، حين قال: هل هناك تحفظ من وجهة النظر الإسلامية بخصوص الدراسات المستقبلية؟ وأضاف إن هذا هو مافهمه من البعض فى العالم الإسلامى حسب قوله، وكانت إجابتى سريعة بأن هناك فرقاً بين الإيمان بالغيب وأن مايأتى به المستقبل يقيناً هو من علم الله سبحانه وتعالى وحده ولكن الإسلام هو دين العمل والأخذ بالأسباب دائماً، وإلى أبعد الحدود والدراسات المستقبلية، ومحاولة استشراف وتوقع ماقد يحدث مستقبلاً، والاستعداد له من قبل الأخذ بالأسباب.. أما أن عقلية الوصايا المستلطة وعدم الأخذ بزمام المبادرات الإيجابية وانتظار ما يأتى به الآخرون والأحداث التى يعملون على توجيهها.. فكل هذا ليس من الإسلام بشىء.. خاصة فى عصر السرعة والتقدم العلمى المذهل، الذى أصبح يحكم جملة العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بالواقع المعاش، وله الكلمة العليا فى حياة الحضارات وانكماشها وموتها أيضاً..

(٤) «ثقافة التفاوض» لاتعنى قطيعة مع الماضى بل التواصل إيجابياً معه»

تصور البعض أن مفهوم «ثقافة التفاوض» يعنى ميكيافيلية الحاضر وإحداث قطيعة مع الماضى وهذا خطأ آخر فى فهم التعبير، وهنا لابد وأن نشير إلى أمرين مهمين أحدهما علمى بحت والثانى ثقافى أساساً.. فالأمر الأول هو أن أدبيات ثقافة التفاوض كثقافة مستقبلية، قد ورد بها عديد من المصطلحات، التى تؤكد على فكرة التواصل الإيجابى مع الماضى، وذلك بهدف رصد أنماط العلاقة وتطورها من الماضى للحاضر للمستقبل، وما الملامح التى اندثرت، وما الملامح التى لاتزال قائمة من المضى، ومستقبل تلك الملامح وشكلها فى عملية التفاعل وهذا يتمثل فى تعبيرات مثل "Trend" (الخاصية) وتعبير (primary Foreeast) وهو الخاص بالتنبؤ الأولى، الخاص بامتداد خاصية من الماضى للمستقبل Seeondary Fovecaat ، و«التنبؤ الثانوى» وهو يعنى بياناً عن أى احتمال مستقبلى، وتعبير "Tentiany Forccast" وهو الخاص ببيان عن شيء محتمل، أو أقل احتمالاً من حيث حدوثه فى المستقبل، مع أخذ كافة العوامل بعين الاعتبار بما فيها التدخل الإنسانى المتعمد؛ لتوجيه الأحداث ومحاولة التأثير فيها لصالح أجندة ما.

أما العامل الثقافى الخاص بموضوع التواصل الإيجابى مع الماضى، كأحد مستويات معانى تعبير «ثقافة التفاوض»، فهو ما أرجعه لمنطق خصوصيتنا الثقافية والعقائدية على وجه الخصوص؛ فهذه الخصوصية هى من مصادر قوتنا.. فهى من أهم مصادر التعبئة الإيجابية، وتعظيم مفهوم القدرة السلوكية التى تمكننا من التعامل مع صعاب الأمور، بل ورفض لليأس وللتخلف. ولعل واقع الممارسة التاريخية يوضح الأثر الإيجابى لهذه القوة التعبوية ولعلنا نتذكر تواصل جنودنا البواسل فى حرب رمضان أكتوبر ١٩٧٣، مع هتاف «الله أكبر»، وهو نفس الهتاف الذى حققنا به أعظم الانتصارات التاريخية، ولعلنا نتذكر موقف جمال عبد الناصر، وهو يخطب من فوق منبر الأزهر الشريف عام ١٩٥٦ ليستحضر كل قوى مقاومة العدوان على مصر، ولعلنا نستحضر مقولة السادات عقب انتصار رمضان أكتوبر «مهما حسبوها.. الكمبيوتر لايستطيع حساب إرادة الشعوب.. خصوصاً لما يكون شعب ٧٠٠٠ سنة حضارة»

ولذلك لاعجب أن مفاوض مثل هارى كيسنجر كان يبرز للمفاوض الفيتنامى وللصينى وللعربى مقولة أن التاريخ لايعيد نفسه؛ ربما ليقطعه من مصدر من أهم مصادر قوته.. لقد قال ذلك رداً على الجنرال الفيتنامى جياب، الذى قال إن مصير القوات الأمريكية فى فيتنام هو «ديان بيان بو..» وكان بذلك يشير إلى مصير القوات الفرنسية التى انهزمت فى ڤيتنام، وكان يقول دائماً إن التاريخ يعيد نفسه وسيعيد نفسه».. وهذا هو إحساس عميق للدول ذات الحضارات العريقة ذات التاريخ الطويل.. الخلاصة أن تعظيم الانتفاع بمستوى التواصل الإيجابى مع الماضى لهو من أعتى

الأسلحة التفاوضية، المعنوية التى نتزود من خلالها بطاقة الجلد والصمود وإرادة التحدى، وعدم قبول ما قد يفرض علينا وهو الأمر اللازم. إذاً لأى محاولات لإعادة صياغة هياكل تفاوضية قد لاتكون فى صالحنا. إذن إن هذا المستوى لمفهوم ثقافة التفاوض يساعدنا فى نوع من التفاوض، يطلق عليه الخبراء «تفاوض إعادة الهيكلة» "Redistrbutive Negotiation".

ولعلنا وفى ختام هذا العرض السريع «لثقافة التفاوض» من حيث التواصل الإيجابى مع الماضى، نلقى الضوء على أن النجاح الجماهيرى الباهر وغير المسبوق لمسلسل الفرسان (حتى فى كم الاحتفالات والجوائز لأبطال المسلسل) يكمن فى كم الإسقاطات التعبوية التى تخاطبت وتلامست مع قناعات تاريخية راسخة لدى ملايين المشاهدين فى مصر والعالم العربى الإسلامى، والتى تثق وتقر بحقيقة تاريخية مؤكدة بأن مصر هى قائدة العالم العربى والإسلامى، تنهض عبر التاريخ لتحيى العزائم بعد الهزائم وترد كيد المتعدين وتدحرهم، فإن جندها خير أجناد الأرض وهم فى رباط إلى يوم الدين..

والسؤال المطروح فى هذا السياق كيف تقدم حقائق التاريخ المدعمة لهويتنا بكل ما نملك من دقة، مع التأكيد على الدروس المستفادة لصالح الحاضر والمستقبل.. كيف تقدم الجوانب المختلفة للرؤى التاريخية لنتعلم منها، ولعلنا ونحن فى شهر يونيو أن نستحضر سؤالاً مهماً على سبيل المثال وهو كيف حدث ما حدث فى يونيو ١٩٦٧ ؟ ولماذا؟ والأهم هو كيف لايحدث ما حدث مرة أخرى؟ هل قضينا على أسباب ماحدث تماماً أم أن هناك ماينقصنا؟ وكيف السبيل لتغطية النقص؟ و ما إلى ذلك من أسئلة..

(٥) ثقافة التفاوض من المنظور التقنى البحت:

يبقى المستوى الأخير من معانى مفهوم «ثقافة التفاوض»، وهو منظور الإلمام العلمى المبنى على التدرب بتقنيات التفاعل المتعددة؛ خاصة أمر إقامة الحجج فى السياقات المختلفة، فهذا أمر يحتاج إلى وقت طويل لإتقانه، ويتطلب جهداً مماثلاً لإتقان مادة علمية أخرى كالرياضيات والطبيعة وغيره، وهو أمر يحتاج إلى زرعه فى العملية التعليمية، ولقد تناولته فى سياقات مختلفة، وأهمها فى كتاب مفصل بعنوان «**أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى، ١٩٩٢**»؛ حيث أثبتت الدراسة فقدان هذه التقنيات ليس فقط على مستوى ما أثير فى الشارع العربى، ولكن على مستوى تفاعلات النخبة العربية أثناء الأزمة.. الأمر الذى لم يكن فى واقعه إلا ذروة للأزمة الثقافية والتعليمية، التى نعانى من آثارها اليوم، وهذا لايزال يمثل أهم الدروس المستفادة من أزمة الخليج ١٩٩٠ . ولعل من الطريف أن نلاحظ أن آخر ملفات الحوار

التى اتسمت بافتقادها الكبير لمفهوم إقامة الحجج بشكل علمى راسخ، هو ذلك الملف الذى تناول فيه عديد من أساتذة الجامعات موضوع تطوير التعليم والترقية بالجامعات أخيراً، وبشكل «قتالى» تناحرى ابتعد ـ فى حالات عديدة ـ عن تقنيات التفاعل العلمى الدقيق والإيجابى، وهو الأمر الذى يجعلنا نطرح مفهوم «ثقافة التفاوض» بمستويات معانيها الخمسة، التى ذكرناها وأهمها التقنى ليدرج فى شكل مادة تعليمية، تقدم على مراحل العملية التعليمية تتناسب وقضايانا، ولنبدأ بتدريب المعلم أولا ثم بتصميم المادة التعليمية الملائمة فى مراحل التعليم ثانياً. فهذا هو أحد السبل المهمة للدخول إلى القرن القادم بتعليم متقدم وبتفاعلات متقدمة، تليق بحضارتنا العريقة، وتمكننا من تعظيم فكرة العمل الجماعى اللازم للتنمية فى الداخل وإدارة الصراعات المركبة فى الخارج، والله ولى التوفيق.

ولعله من المهم أن ألقى الضوء فى نهاية هذه الدراسة على ملمح تقنى مهم وننتمى إلى أدوات ثقافة التفاوض الإيجابى التى ينبغى، وأن تكون البديل لهيمنة التسلط وأدواته.. وهذا الملمح يتعلق بعملية إقامة الحجج والإلمام بعناصرها العلمية وأوجه الخلل. ولعل من المهم أن أرصد هنا جزءاً صغيراً مما ورد فى الفصل الخامس من كتابى بعنوان أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى (٣٠٠ صفحة)(٣٧).

حيث أقدم فى ذلك الفصل دراسة للملامح العلمية لإقامة وتفنيد الحجج من منظور لغويات التفاوض، ويتبع ذلك أمثلة توضيحية من تفاعلات الأزمة وما أعقبها تجسد الأنماط التفاعلية السلبية، التى تمثل انتهاكاً أو خللاً للقواعد العلمية لإقامة وتفنيد الحجج. ولقد تناولنا فى ذلك الفصل النقاط التالية:

اختار الباحث دراسة ملامح وأساليب إقامة الحجج Argument feature كإحدى الأدوات التحليلية، التى تندرج تحت إطار منظور لغويات التفاوض والملائمة لدراسة تفاعلات النخبة حول أزمة الخليج للأسباب التالية:

أولاً: علاقة دراسة الملامح العلمية لإقامة وتفنيد الحجج من منظور لغويات التفاوض بدراسة بنية وتضاريس العقل العربى:

(أ) إن هناك قدراً ضخماً من التفاعلات حول الأزمة من قبل النخبة، يتمثل فى دحض وتفنيد الحجج المختلفة التى أثارتها تفاعلات أطراف أزمة الخليج إلى الحد، الذى دفع عدد كبير من أعضاء النخبة إلى أن يتعامل مع تقنيات إقامة الحجج فى كتاباتهم، ولكن بالحدس والمنطق البديهى. ولقد انعكس ذلك فى تكرار ضخم لتعبيرات بل وعناوين نسوق هنا بعضها على سبيل المثال، انظر الحجج الأردنية (لسلامة أحمد سلامة ١٩٩٠/٩/١٧) «الحجج العراقية» أو أكاذيب صدام الادرنية (د. اسماعيل صبرى ١٩٩٠/٨/٢٠) و«خلط الأوراق» (سعيد سنبل) ١٩٩١/١/٢٩، «لماذا الخلط بين المسلمات الشرعية والقضايا الجدلية» (لزكريا نيل ١٩٩٠/٩/٨) «هل صدام هو

الذى ربط الغرب بإسرائيل» (د. عبد الوهاب المسيرى ١٩٩١/١/٢٩) وكل هذه المقالات توضح الطبيعة الجدلية التى صاحبت الأزمة الأمر، الذى يدعو إلى دراسة ملامح الحجج لتوضيح معالم إقامة وتفنيد الحجج على نحو علمي.

(ب) إن دراسة ملامح الحجج لأعضاء النخبة العربية ليمثل أكثر الطرق العلمية ملاءمة للإجابة عن بعض الأسئلة الرئيسية لتحليل مضمون الفكر العربى حول أزمة الخليج والتى تهدف إلى استكشاف «الخلل فى بنية العقل العربى ومقولات الفكر العربى التى أفرزها، شكلاً ومضموناً، ومحاولة تبين ملامح الشخصية العربية والسلوك العربى النخبوى والشعبى على السواء. فدراسة ملامح الحجج تقدم لنا صورة لأساليب التفكير من قبل النخبة (Reasoning styles) ، وكذلك توضح بطبيعتها حجم أو قدر «الخلل» فى عملية إقامة الحجج "Fsllacies" واتساقها فى سياق مقولة أو مقولات معينة لكاتب أو متحاور ما.

(جـ) إن إقامة الحجج والهدف من إقامة حجة ما فى سياق جدلى كسياق الأزمة يمثل محاولة الكاتب أو المتحدث أن يستقطب الآخرين لوجهة نظره، وكذلك هى محاولة لصياغة الرأى العام أو تشجيع صانع القرار أو الرأى العام أو الإثنين معاً نحو اتجاه ما. ومن ثم فإن عملية تحليل ملامح الحجج تساعد على تعرف الأساليب المختلفة الخاصة لصياغة الرأى العام، أو تشجيع صانع القرار أو الرأى العام أو الاثنين معاً نحو اتجاه ما. وهذا موضع دراسة تفصيلية قادمة لكاتب هذه السطور.

ثانياً: مدخل عام للمفاهيم الخاصة بتحليل عناصر إقامة العليمة وتفنيد الحجج:

- المفاهيم:

ما الحجة؟ وما عناصرها؟

يقسم علماء اللغويات الاجتماعية المطارحات "Discourse" إلى أربعة أنواع رئيسية من حيث أساليب التناول، وهى:

(أ) السرد (Narration): وتتمثل فى سرد أحداث بترتيب متتالٍ من نقطة إلى أخرى، وتكون نية الكاتب الأساسية هنا هى إخبار القارئ بما حدث.

(ب) الوصف Description: وهو محاولة الكاتب ترك انطباع ما لدى القارئ تجاه شيء ما أو شخص ما أو مكان ما، وبالتالى فأسلوب التناول هنا يتضمن إخبار القارئ أو المستمع بتفاصيل مايحدث به بطريقة إما ذاتية Subjective أو موضوعية Objective.

(جـ) الشرح والتحليل Exposition: وهو محاولة شرح مفهوم ما أو تحديد تعريفه أو شرح عملية ذات طابع ذهنى أو فيزيقى، وكذلك محاولة التعريف بالفرق بين شيئين، أو شخصين أو مؤسستين، وأوجه التشابه أو الاختلاف بينهما.

(د) الحجج Argumentation: ويختلف أسلوب التناول هنا عن الأنواع الثلاثة المذكورة. فبينما تتداخل هذه التصنيفات بطبيعة الحال إلا أن الحجة تكون واضحة ومتميزة عندما يحاول الكاتب طرح مقولة يحاول أن يظهر تفوقها على مقولات أخرى، ويحاول فى الوقت نفسه إقناع الآخرين بها، فى محاولة منه لتغيير نظرتهم لموضوع ما يكون محل جدل. وبمعنى آخر إذا كان الهدف من الثلاثة أنواع الأولى هو عرض مجموعة من الاختيارات.. فإن الحجة تهدف إلى حث المتلقى لها على تبنى اختيار واحد فقط.

وتتكون الحجة من ثلاثة عناصر رئيسية، وثلاثة عناصر فرعية. وهذه العناصر هى:

(أ) «لب المقولة الرئيسية أو الادعاء» "Claim" ويعبر هذا العنصر عن الموقف الرئيسى، الذى يتخذه كاتب أو متحدث ما فى سياق جدلى. وأحياناً أخرى تسمى المقولة الرئيسية «بالخلاصة» "Conclusion"، ويرتبط «بالمقولة الرئيسية» عنصر الدحض أو التفنيد المسبق "Rebuttal". وهذا العنصر يتجسد فى كافة التعبيرات أو المقولات، التى توضح حرص الكاتب على أن تتضمن مقولته الرئيسية العناصر التى تدحض مقدماً هجوم أو اعتراضات متوقعة من قبل الآخرين على «مقولته الرئيسية». وهذا العنصر يستخدم فى المقالات ذات الدقة العالية، والتى تتسم بالمنهج العلمى والموضوعى.

(ب) «الأرضية التى تستند إليها المقولة الرئيسية» (Grounds) ويسميها البعض الآخر من علماء اللغويات «البيانات» Data، ومن شأن هذا المكون أن يدعم المقولة الرئيسية «أو الادعاء». والإتيان الجيد بهذا العنصر فى مقولة الكاتب بمثابة قوله (نعم هناك مايدعم المقولة الرئيسية أو الادعاء» فى حجتى بخصوص الأمر».

وهناك ثلاثة أنواع من «البيانات» أو «الأرضيات» التى تدعم «المقولة الرئيسية»، وهى:

ـ الدليل (Evidence) مثل الإحصائيات.

ـ القيم (Values) دعم المقولة من منطلق أمثلة ذات قيمة اجتماعية أو دينية متفق عليها.

ـ المعقولية (Credibiliy) دعم المقولة بالاستشهاد بمقولات أشخاص، أو مصادر لها معقوليتها.

(جـ) «عنصر الاتساق والربط» بين «البيانات» Data والمقولة الرئيسية Claim، وهو ما يسمى بالـ (Warrant).

ولقد أطلق خبراء اللغويات الاجتماعية كلمة Warrant على هذا العنصر من الحجة لأنه بمثابة إعطاء «رخصة» أو «تصريح» للقفزة العقلية (Mental Leap) من الإدعاء للبيانات والعكس.

وقد يتم حذف «عنصر الاتساق والربط» Warrant من الحجة، أو يترك لاستنتاج المتلقى (القارئ أو المستمع)، وهنا نتوقف على نوع الجمهور المتلقى للحجة إذاً فهذا العنصر هو الذى يكشف إلى أبعد حد عن رؤية الكاتب أو المتحدث «للقارئ أو المستمع.. من حيث تقبلهم» «للمقولة الرئيسية»، التى يطرحها أو تحفزهم بالاعتراض على تلك المقولة. إذاً فحذف هذا العنصر من الحجة من قبل الكاتب يدل على شعوره بالزمان مع المتلقين لمقولته الرئيسية، ومشاركتهم الرأى فيما يتعلق بها كمن يتحدث إلى أعضاء فى حزب واحد. ويعتبر وجود هذا المكون ضرورياً جداً فى حالة السياقات الجدالية، وفى حالة التعامل مع جمهور لايتفق أساساً مع المقولة الرئيسية المطروحة فى حجة جدالية ما. وكذلك يرتبط بهذا المكون الرئيسى عنصر فرعى آخر، وهو عنصر «التدعيم» (Backing) أى لتدعيم عنصر «الاتساق والربط» (Warrant), ويستخدم إذا دعت الحاجة إلى ذلك حسب سياق الموضوع ومعطياته وطبيعة الجمهور، الذى يتحدث له الكاتب فى المقام الأول.

أما العنصر الفرعى الآخير للحجة فهو «العنصر الذى يعكس مدى قوة موقف الكاتب من القضية المطروحة.. أى حجم ميله وتحيزه لموقف ما، وهذا ما سمى بـ «بعنصر شدة التعبير» أو (qualifier) ، وهذا العنصر يهدف لقياس مدى الانفعالية، التى تظهر من معنى المقال أو بمعنى آخر حجم التحيز لعاطفة ما، وبالتالى فإن هذا العنصر يمكن تسميته بمقياس درجة التحيز. وهذا العنصر يتمثل فى ورود عبارات، مثل: «مما لاشك فيه أن موقف «هو الموقف الصحيح تماماً الذى يجب أن نتبناه»، وهو مايعبر عن الانحياز غير المتحفظ لموقف ما. وفى بعض الحالات قد يسبب موقف الانحياز التام أن يستخدم كاتب ما تعبيرات التهديد والوعيد والإهانة لمن يخالفه. وهذا الأمر يمثل خللاً واضحاً فى إقامة الحجج. أما المستوى الأصوب فهو الطرح الموضوعى، الذى يكشف عن موضوعية الكاتب وعادة مايصاحب ذلك الطرح تعبيرات وأساليب، تجعل هناك مسافة بين الحدث وتفسيره؛ بحيث يستطيع القارئ أو المتلقى الحصول على تقييم موضوعى وعادة مايتمثل هذا الأسلوب فى تعبيرات، مثل: «هناك عدة احتمالات نرى أهمية تعرف معطيات كل منها» أو «من المحتمل» أو «من الجائز».. إلخ. والخلاصة هى عدم استخدام أى من هذه التعبيرات، التى توحى باحتكار الحقيقة وتقرير الأمور بحدة وذاتية فى سياق حدث أو موضوع هو جدالى بطبيعته.

الخلل فى الحجج
(FALLACIES)

ـ هناك عدة أمثلة تعكس وجود خلل فى بناء الحجة، ولقد استعان خبراء علم اللغويات الاجتماعى بتعبيرات من علم المنطق (Formal Logic)، واستخدموها للتدليل على وجود انتهاكات للقواعد السليمة لبناء الحجج، أو ما أسموه بنقاط الخلل أو (Fallacies)، وهى كالآتى:

الخلل الناتج عن استخدام عنصر «الربط والاتساق»
(Warrant) Fallacies of warrants

ويندرج تحت هذا النوع من الخلل الأنماط التالية:

ـ «هذا الأمر ليس بالشرط نتيجة لذاك» (Non Sequitur)

أو كما يقال بالإنجليزية (Itdoes mpt follow)، ويرتبط هذا النوع من الخلل بنمط آخر، يرمى إلى «التهييج العاطفى المتعمد»؛ حين يستخدم الكاتب أو المتحدث سلاح إثارة مشاعر البسطاء إلى الحد، الذى تغطى فيه المشاعر الملتهبة على أى منطق.

ـ التعميم المتسرع (Hasty generlization).

ـ التبسيط الزائد العلاقة السبب وأثره (Cause & Effect).

ـ استخدام دليل مبنى على «شخصية أو مصادر ليس لها معقوليتها، لدى المتلقين».

ـ الخلل الناتج عن استخدام «عنصر الدحض والتنفيذ المسبق» (Rebuttal) ، وقياس موقف الكاتب (qualifier).

ويتجسد هذا الخلل فى عدم حرص الكاتب على تجنب الوقوع فى خطأ إتاحة كثير من الاعتراضات والنقد المتوقع لمقولته، وإخفاقه فى حماية حدود حجته، من خلال وعيه الكامل بالموقف وردود الأفعال المحتملة وقطع الطريق عليها. وكذلك يتجسد الخلل فى اندفاعه نحو تبنى موقف بصورة إطلاقية، لاتعطى الانطباع بالموضوعية.

ـ الخلل الذى قد ينتج عند تقديم الكاتب «لمقولته الرئيسية»، ويتجسد فى الأنماط التالية:

ـ «الإثبات من خلال التكرار» أو «الدوران فى حلقة دائرية»، فبدلاً عن تقديم دليل واضح لدعم المقولة الرئيسية، تقدم المقولة الرئيسية على كونها الإثبات ذاته من خلال كلمات مرادفة وتكرار فقط.

ـ «تجاهل السؤال الذى تطرحه قضية ما (Ignonring the qusetion): والمقصود بذلك هو إخفاق طرف من الأطراف فى استيعاب وتحديد ماهو السؤال الرئيسى، الذى تطرحه قضية ما إما عمداً أو سهواً، والتعامل مع أسئلة فرعية.

ـ «نقل عبء الإثبات على الآخرين» shifting the burden.

أى نقل عبء إثبات المقولة الرئيسية فى الحجة على الآخرين، أى كما فى القول «لقد تمكنت قواتنا من إسقاط خمسين طائرة للعدو، ونتحدى كل هؤلاء الذين يزعمون أن طائراتهم قد عادت سالمة. أو كما فى قول أحد المسئولين: «أن الإجابة عن هذا التساؤل قد أجاب عنها سيادة الرئيس منذ فترة طويلة ـ وعلى المستمع أو المتلقى البحث عن هذه الإجابة فى خضم تصريحات عديدة!

ـ خلل الإيحاءات الناتجة من ثنائية المعانى Equivocation.

ويتجسد الخلل هنا إذا ما بنيت حجة ما على معنى مفهوم واحد، يحتمل وجود معنيين واضحين له، وأخذ على كونه يعنى معنى واحداً فقط، دون النظر إلى احتمال قصد المعنى الآخر، كما سنوضح فى تحليل العينات فى الجزء الثانى من هذا الفصل.

ـ الخلل الناتج عن التشهير بشخص ما دون التعامل الموضوعى مع ما يطرحه من مواقف أو مقولات.

ثالثاً: أنماط أخرى تجسد خطايا الحوار وتحليل لأوجه الخلل فى إقامة وتفنيد الحجج:

حوارات الحجج الأفقية "parataxis"

هناك نوعان رئيسيان من أساليب إقامة الحجج: الأول هو مايسمى بالحجة الأفقية أى بتكرار العبارات بهدف التعبئة، وهذا يأتى عادة فى المواقف الحماسية واللحظات الدرامية، وهى الأشهر استخداماً فى أساليب الإقناع، التى تستخدم فى التفاعلات العربية، إلا أنها ذات صبغة عالمية أيضاً فلقد استخدمها تشرشل فى خطاب الحرب ضد الألمان.

أما الحجة الرأسية أو (SyIIogism) فهى تتسم بتسليط الضوء على المقولة الرئيسية للطرح المكتوب أو المسموع فى بداية الطرح، وما يأتى بعد ذلك يكون بمثابة تركيز ودعم للنقطة الرئيسية، من خلال أدلة كالتى أشرنا إليها فى الجزء الأول من هذا الفصل. وتتسم هذه النوعية من إقامة الحجج بخلوها من التكرار كأسلوب للإقناع.. أى عكس الحجة الأفقية، التى تتسم بالتكرار. واستخدام الموسيقى اللغوية يختلف من ثقافة إلى ثقافة ومن فرد إلى آخر، ولكن للموسيقى اللغوية وقعاً خاصاً لدى المستمع العربى، كما نلاحظ ذلك جميعاً وعلى مستوى النخبة والعامة.. انظر إلى عناوين المقالات والأبحاث الحديثة جداً عن الأزمة لتجد الآتى «حرب الكلمات وكلمات الحرب» لمراد الدسوقى الأهرام ١٩٩٠/١١/١٦ و«إعلام الأزمة وأزمة الإعلام» (سيف الدين عبد الفتاح) «بحث فى ندوة حتى لاتنشب حرب غربية جديدة كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ديسمبر ١٩٩١).. خطاب الأزمة وأزمة الخطاب (للسيد يسن ١٩٨٦) «وحرب اللاحرب للطفى الخولى ١٩٩٠/١٢/٢٧» وانكسار الثورة وانتصار الثروة «لكاتب عربى آخر». إن أمر استخدام لغة المؤثرات الموسيقية فى تفاعلات النخبة له جذور ضاربة فى تاريخ الكتابة الموسيقية العربية. على سبيل المثال لا الحصر، تتأصل

الموسيقى فى عناوين قديمة لابن خلدون مثل: «الشفاء السائل فى تهذيب المسائل». وأمر الموسيقى فى اللغة أمر بديع بلا شك، خاصة إذا انسجمت الموسيقى مع أسلوب التفكير والموضوعية، ولكن خطورة هذا الأمر تكمن فقط فى هؤلاء خاصة إذا كانوا من السياسيين مثل صدام حسين، الذين يكون شاغلهم الأكبر هو الموسيقى اللغوية فيبدأون تناول فكرة لمجرد الموسيقى أساساً؛ أى موسيقى الكلام وليس لمجرد تناول كافة أبعاد الفكرة بأسلوب علمى وبعقلية السياسى المحنك.

لقد تناول سرد التفاصيل المتعلقة بهذين النوعين الرئيسيين لإقامة الحجج بعض الباحثين من علم اللغويات الاجتماعية، مثل: باربرا كوش وبربارا جونستون John-stone؛ حيث قامت هذه الباحثة بتحليل عينات من كتابات بعض الأدباء العرب مثل طه حسين على وجه الخصوص، وكذلك كتابات الإنشاء للطلاب العرب، الذين يدرسون الإنجليزية، وذهبت للقول بأن الحجة الأفقية هى خاصية من خصائص اللغة العربية، وهى وسيلة الإقناع التى ينتهجها المتحاورون العرب، وأن الحجة الرأسية هى فى واقعها تمثل النمط الغربى فى عملية إقامة الحجج، وهو ما عرف بالنمط الأرسطوطى (السولوجيزمى) Syllogism، ولقد فند كاتب السطور هذه المقولات بشئ من التفصيل فى سياق آخر. ولكن ما أود أن أسلط الضوء عليه هنا هو أن كلاً من نوعى الحجة الأفقية والحجة الرأسية لهما جذورهما فى الفكر العربى قديمه وحديثه، وأن ذهاب بعض الباحثين إلى قصر الحجة الأفقية على العرب على كونها طريقتهم فى الإقناع (على أساس أن ذلك من خصائص اللغة العربية من منطلق تأييدهم لفكرة أن اللغة هى التى تحدد الأنماط الفكرية لمجموعة ثقافية) ما هو إلا نوعاً من التبسيط الزائد، الذى ينقصه الدقة العلمية؛ فلقد ثبت أن كلاً من الفكر واللغة يتداخلان، وأن الفكر قد يؤثر على استخدام اللغة أو العكس والأمر منوط بعوامل متعددة، أكثر تعقيداً بالفرد ذاته وتكوينه وتعليمه ومدركاته..

ولكن الحقيقة التى لاشك فيها أننى قد توصلت إليها من خلال تحليل كم هائل من البيانات المتعلقة بالأزمة وغير سياقات الأزمة، تشير إلى شيوع الحجة الأفقية كنمط إقناع رئيسى ولكن ليس مرجع الأمر لطبيعة اللغة العربية، كما وصفه بعض الباحثين الغربيين؛ بل إنه يرجع أساساً لفقدان اختيارات أدوات الحوار المناسبة، وهو أمر يتعلق بفراغ فى البنية التعليمية فى الوطن العربى، وكذلك غياب الديمقراطية، حيث يسود استخدام الحجة الأفقية بغرض التعبئة أساساً وبغرض قمع شيوع التفكير المنطقى فى أحيان كثيرة. إن شيوع إساءة استخدام الحجج الأفقية فى سياقات الحوار، التى لايتطلب السياق استخدامها ربما يكون هو السبب الذى دفع باحث مثل جون لافين

John Laffin إلى أن يقول «إن علينا عندما نتعامل أو نتحدث مع العربى بالصبر، علينا أن نستمع، وعقب أن ينتهى من كلامه علينا أن نعيد تركيب ماقاله؛ لنستطيع أن نفهم ماذا قال. ورغم أن هذه المقولة بها ما بها من تعميم غير جائز علمياً إلا أنه مع الأسف هناك وجود لعدد كبير من المقولات التى تنطبق عليها مقولات لافين. لقد اتسم الخطاب العراقى الرسمى بشيوع وإساءة استخدام كل خصائص الحجة الأفقية؛ حيث لايصعب على المراقب أن يجدكماً هائلاً من الإطناب والتكرار اللاموضوعى؛ والاعتماد على موسيقى اللغة أساساً، دون التعمق الكافى فى سياقات مايحدث مع التركيز العالى على النغمة الانفعالية، والقفز من موضوع إلى موضوع دون ترابط منطقى يعالج السبب وأثره، الأمر الذى جسد بدوره النمط التالى فى تفاعلاتنا:

حوارات «خلط الأوراق»

لاشك أن هذا التعبير «خلط الأوراق» كان من أكثر تعبيرات تفاعلات الأزمة شيوعاً وكان قبل الأزمة ولايزال من بعدها من الأنماط السلبية فى تفاعلاتنا والإشكالية، من ناحية تناول الأمر علمياً هنا أن يقوم أحد المتحاورين باختيار لب مقولته الرئيسية أو «الادعاء» "Claim"، دون النظر إلى السياق الأشمل لهذه المقولة، وبالتالى يفتقد اختيار «الادعاء القوى ويفتقد كذلك تقديم» التنفيذ المنطقى أو المسبق لما قد يتوقعه من هجوم "Rebuttal" ، وبالتالى تتسم حجته بالخلل؛ حيث يفتقد الكاتب الذى تخلو حجته من عنصر الدحض والتفنيد المسبق لمعالجة السبب وأثره، وبالتالى تكون حجته نوعاً من التبسيط الزائد للأمور.

ولقد تجسد نمط خلط الأوراق، والذى صاحبه أنماط «التأطير والمؤامرة» فى تصارع عدة مقولات رئيسية تتجاهل السياق الأشمل والترتيبى للأحداث، وهى:

(١) خلط قضية غزو الكويت بقضية وجود القوات الأجنبية على الأراضى المقدسة.

(٢) خلط قضية العدوان على الكويت بالعدوان على فلسطين. وفى بعض الأحيان الأخرى خلط قضية العدوان على الكويت بقضية تحرير فلسطين.

أما فيما يتعلق بالنقطة الأولى نستعرض من بيانات «تصارع الحجج» مقالتين الأولى لسعيد سنبل، والثانية للأستاذ خالد محمد خالد. وهنا ننظر إلى نص المقالة الثانية للأستاذ خالد محمد خالد، والذى اتسم بحدة الاصطدام والمباشرة مع هؤلاء الذين يخلطون أوراق قضية غزو الكويت بقضية وجود القوات الأجنبية على الأراضى المقدسة، ويتجاهلون السبب الرئيسى فى وجود القوات الأجنبية وكان هذا المقال بعنوان «ليست المشكلة فى وجود القوات الدولية، بل الكارثة فى غيابها» (الأخبار ١٩٩٠/٨/١٢) وفيما يلى هذا الجزء من المقال:

ليست المشكلة فى وجود القوات الدولية بل الكارثة فى غيابها

كنت أستطيع أن أختار لهذا المقال عنواناً أكثر دبلوماسية، ولاينقصه التنكر وراء واحد من الأقنعة، التى تغطى اليوم وجوه الذين يخفون فى أنفسهم ما الله مبديه..

كنت أستطيع ذلك، حتى أقطع ـ على الأقل ـ الطريق على المهرجين والمشعوذين الذين سينادون حمقاهم قائلين:

انظروا.. هاهو ذا يرحب بالاستعمار الأجنبى!! وهاهو ذا لايرى بأساً فى جيوش الكفر التى زحفت على بلادنا.. بل يرى الكارثة ماثلة فيما لو أنهم تقاعدوا عن المجىء..!!

أجل كنت أستطيع.. ولكن ماذا سيكون الفارق بينى وبينهم آنئذ؟؟

كان الكذابون والمضللون سيزيدون بى واحداً. يضاف إليهم ويأخذ مكانه الهابط بينهم.. وكنت سأكون هارباً جديداً من مواجهة الحقيقة. ومناصرة الحق!

ومن أجل ذلك اخترت الرضوخ للصدق يارجال.. آثرت القول بأن الكارثة ليست فى وجود القوات الدولية ـ وعلى رأسها أمريكا ـ بل الكارثة فى غيابها عن الميدان!!

ودعونى بادىء ذى بدء أرسل التحية مضاعفة لأولئك الجنود البواسل، الذين يواجهون خطر الموت فى أقسى صوره وأشرها نذالة ونكراً..!!

أما بخصوص خلط قضية العدوان على الكويت بالعدوان على فلسطين.. فنستشهد بمقال الاستاذ سلامة أحمد سلامة بعنوان «حجج أردنية» حيث يتناول الحجج الأردنية كما جاءت على لسان المسئولين بالأردن فى ندوة قدمتها إحدى شبكات الإذاعة الأمريكية. وفيما يلى نص المقال:

فى ندوة قدمتها إحدى شبكات الإذاعة الأمريكية، سئل رئيس تحرير إحدى الصحف الأردنية عن الجانب الذى تؤيده صحفيته فى النزاع الناشب فى منطقة الخليج.. مع الكويت أم مع العراق؟

حجج أردنية

وكانت إجابة الصحفى الأردنى بالغة الغرابة.. فقد أكد أن الأغلبية الكبرى من الرأى العام فى الأردن تؤيد العراق وتقف إلى جانبه.. لأن العالم العربى سئم استمرار الظلم الواقع عليه، وضاق بانحياز أمريكا الواضح لإسرائيل، ولم يسترح كثيراً للحماس والسرعة والاندفاع الذى أبدته أمريكا، وهى تسعى إلى تنفيذ قرارات مجلس الأمن والأمم المتحدة ضد العراق.. فترسل الأساطيل والجيوش والطائرات، بينما تقف موقف عدم الاكثراث والتهاون من نفس القرارات التى أصدرها مجلس الأمن ضد إسرائيل منذ عشرات السنين.. مع أن الاحتلال هو الاحتلال والضم هو الضم.. أما وجه الغرابة فى

هذه الحجج التى نسمع شيئاً قريباً منها فى بعض الدوائر الحزبية فى مصر، فهى أنها لم توضح نوع العلاقة، التى تربط بين العدوان على الكويت والعدوان على فلسطين، ولم تجب عن السؤال الملح وهو: وماذنب الكويت فى كل هذا؟ ولابد أن نعترف بأن هذه الحجج التى تساق بشكل أو بآخر على ألسنة المسئولين وغير المسئولين فى الدول العربية، التى اتخذت موقفاً متخاذلاً من إدانة الغزو العراقى للكويت، قد تلقى هوى فى نفوس قطاعات واسعة من عامة الناس فى بعض أنحاء العالم العربى، تعانى من مرارة الإهمال والقمع والفقر، وتختلط عليها المفاهيم.. فلا نفرق بين استيلاء حاكم عربى علــى دولة عــربية مجاورة شقيقة، مدفوعاً بعوامل الجشع والطمــع وأحــلام العظمــة، و اغتصاب اسرائيل لحقوق الشعب الفلسطينى، مدعومة بقوى عالمية كبرى وفى ظل صراعات تاريخية وحضارية بين قوميتين، لايتحكم فيها فرد واحد أو دولة واحدة.

غير أن خطورة مثل هذه الحجج التى تبرر فى الوعى الشعبى العام استيلاء دولة عربية على دول عربية أخرى، هى أنها تبرر فى الوقت نفسه استيلاء إسرائيل على فلسطين، وتجعل العجز عن مقاومة الغصب الإسرائيلى مبرراً للاستسلام لكل أشكال الغصب والعدوان.

وحين قال الشاعر العربى القديم وظلم ذوى القربى أشد مرارة.. فقد كان يعنى بذلك، أن الذى لايجزع ولايضيق بظلم ذوى قرباه، لن يكون أكثر جزعاً وضيقاً بظلم الآخرين له.. لأنه سوف يفقد القدرة على مقاومة الظلم.. وقد بلغت شعوب عربية كثيرة مرحلة العجز عن مقاومة الظلم الداخلى، فكيف يتسنى لها أن تقاوم الظلم الخارجى؟ وخير مثال لذلك مايحدث لشعب العراق نفسه.

سلامة أحمد سلامة

(الأهرام ١٧ / ٩/ ١٩٩٠)

حوارات «سلطة النص»

لاحظ عديد من خبراء علم اللغويات والاجتماع والأدب والفلسفة على مستوى العالم العربى أن الثقافة العربية هى ثقافة «نصية» (سيزا قاسم وحسن حنفى ونصر أبو زيد). أما على مستوى الباحثين من غير العرب.. فقد لاحظ شيف Chafe وتنين Tannen وغيرهم أن الثقافتين الإيرانية والتركية هما أيضاً ثقافات «نصية»، والمقصود بتعبير الثقافة النصية هو أن يكون هناك نص رئيسى هو «النص الأم»، المولد لاحصر له من الظواهر النصية، كما ذهبت إلى ذلك سيزا قاسم. ومن واقع الثقافة العربية نجد أن القرآن الكريم هو ذلك النص المحورى الأساسى، الذى يمثل «سلطة توجيه وتقنين وتشريع»، كما ذهب إلى ذلك حسن حنفى، الذى يقول فى هذا الصدد: «إن النص

يظهر كسلطة فى النصوص الدينية أكثر منه فى النصوص الأدبية أو التاريخية أو القانونية. وتقتضى النصوص الدينية والقانونية الطاعة، أكثر مما تقتضيه النصوص التاريخية والأدبية بطبيعة الحال، ولذلك تستعمل النصوص كشواهد فى الخطاب فى المجتمعات النصية، التى لايزال يمثل فيها سلطة.(٣٨)

وبتحليل تفاعلاتنا الاجتماعية اليومية.. نجد عشرات الأمثلة التى تجسد نمط «سوء استخدام سلطة النص»؛ حيث يتجسد ذلك فى هذا الكم الكبير من شركات توظيف الأموال، التى انتهزت فرصة تأثير سلطة النص القرآنى على جموع المودعين وأساءت استخدام هذه السلطة، بما قامت به من عمليات نصب وسرقة وهروب رؤسائها من البلاد، كما ثبت ذلك فى عديد من التحقيقات. ولم تكن تفاعلات الأزمة التى جسدت نمط «سوء استخدام سلطة النص» جديدة على الواقع العربى، فلقد استحضر الخطاب الرسمى العراقى كمّاً ضخماً من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وإلى الحد الذى جعل صدام حسن، يؤكد على الانتساب إلى الدوحة المحمدية القريشية، وأن الله سبحانه وتعالى قد جعله منوطاً بأداء دور قيادى خاصاً لمحاربة الفساد وإقرار العدل، ومن هنا استحضر شعارات الجهاد والدفاع عن المقدسات ومنازلة الحق.. «وليخسا الخاسئون»، ذلك التعبير الذى لازم نهاية أى بيان من البيانات العسكرية، وغير العسكرية التى وردت بالخطاب الرسمى العراقى. ولقد استمر الخطاب العراقى على هذا النحو، حتى عندما بدأ النظام يفكر فى الانسحاب؛ فلم يجعل المفاوض العراقى القرار على أنه قد جاء من شخص الرئيس صدام، بل إنه جاء من خلال قصة أوردها الرئيس العراقى عن «الحلم الذى يظهر فيه النبى صلى الله عليه وسلم لصدام حسين ليخبره بأن صواريخه غير موجهة إلى المكان الصحيح. وكان هذا متضمناً فى منشورات وزعتها القيادة العراقية على أفراد القوات فى العراقى والكويت، الأمر الذى تم تفسيره حينذاك على أنه نوع من التمهيد النفسى لاحتمال انسحاب العراق من الكويت (برغبته).

ولكن الذى يلفت النظر بصورة أكبر هو كيف أن هذه الجماهير قد خدعت بإساءة استخدام سلطة النص، وبأكذوبة الجهاد الإسلامى ومنازلة الكفار التى رفعها صدام حسين، وبعدم جواز الاستعانة بهم من قبل المسلمين. إن هذه الظاهرة لاتزال بحاجة إلى دراسة أخرى؛ فالأمر الذى شاع بين جماهير الشارع العربى والإسلامى حينذاك إن ماضى صدام العلمانى وجرائمه ليست شرطاً فى إثبات أنه لايجسد صورة البطل الذى يدافع عن الحق وينازل الباطل، وأنه مسلم مؤمن حقاً. ودليلهم هو ماكان يتخذه من مواقف أثناء تفاعلات الأزمة إلى الحد الذى شبه به فى إيران على وجه الخصوص بأنه «خالد بن الوليد»، الذى كان من المشركين، وأصبح سيف الله المسلول، ويقول الكثيرون..

إنه تاب فلما لانصدقه وأنه من المنافى لتعاليم الإسلام أن تكذب مايقوله أحد؛ خاصة بشأن التوبة، فالله وحده هو الأعلم بالسرائر. الأمر الذى لايختلف عليه أى مسلم. ويذهب البعض الآخر إلى أنه حتى إذا كان صدام جائراً وظالماً وليس «بخالد ابن الوليد»، فشره أهون من الكفار الذين جاءوا إلى الأراضى العربية، وبالتالى وجب الجهاد ضدهم. ونقد الأستاذ فهمى هويدى فى مقاله «خطاب فى الكفر والظلم بتاريخ ١٩٩١/١١/٢٣» هذين المفهومين (الكفر والظلم) من الناحية الإسلامية. إن ما نخلص إليه هو أن إساءة استخدام سلطة النص فى الثقافة العربية الإسلامية لايزال من الأنماط، ذات الوقع التأثيرى الكبير على جماهير الشارع العربى الإسلامى. وهذا ما أكدته تفاعلات أزمة الخليج، وكذلك عديد من تفاعلات الأزمة الثقافية المزمنة.. الأمر الذى يستلزم مزيداً من التأمل والتدبر لواقع إشكالى جم خطير.

حوارات «التبسيط الزائد لعلاقة السبب وأثره»

ويرتبط هذا النوع من الخلل فى إقامة الحجج ـ والذى أشرنا إليه بإيجاز سابقاً، عند تقديم العناصر العلمية للحجج بالجزء الأول من هذا الفصل ـ بمفهوم ذاتية المتحاور، الذى لايستحضر القدر الكافى من التجرد الموضوعى للحكم على الأمور بالقدر المطلوب من الدقة، بل يترك لحيز الذاتية الموجود بداخل كل منا المجال الأكبر لتفسير الحدث ولقد وقع عدد كبير من أعضاء النخبة العربية فى هذا المطلب، وهناك أمثلة كثيرة فى بنك البيانات الخاص بهذه الدراسة التى تسلط الضوء على هذا النمط. ومن الأمثلة الدالة مقال كتبه المفكر العربى د. محمد عابد الجابرى أثناء فترة الأزمة فى جريدة الاتحاد الاشتراكى المغربية بتاريخ ١٩٩١/١/٢٧ بعنوان «كلام.. الآن فقط أصبح له معنى..!» وفيما يلى تحليل لهذا المقال الذى سوف نتناوله من منظورين: الأول هو تحليل لمسار الموضوعات به لتحديد المقولة الرئيسية، والثانى هو توضيح لملامح الخلل فى إقامة الحجة به.

أولاً: تحليل الموضوعات بالمقال وتحديد المقولة الرئيسية (Claim):

يوضح الجدول التالى (رقم ٢) مسار موضوعات المقال:

الموضوع (١)	«مقدمة لتعريف التاريخ طبقاً لوجهة نظر الكاتب بهدف تقديم لحظة التفاعلات الحية فى أزمة الخليج»
الموضوع (٢)	«اللحظة التاريخية الحية لتفاعلات الأزمة قد بدأت فى ٢٥يونيو ١٩٩٠ أى قبل دخول القوات العراقية الكويت بخمسة أشهر، وهى ندوة أقيمت فى بغداد لإحياء ذكرى ميشيل عفلق مؤسس حزب البعث الاشتراكى الحاكم فى العراق»
الموضوع (٣)	«موجز لخطبة مسئول عراقى فى الندوة وكلامه عن المشروع القومى العربى التحررى».
الموضوع (٤)	«نص كلام المسئول بخصوص: ـ العلاقة مع الغرب. وعلاقة العراق مع الدول العربية وعلاقة العرب الآخرين بالغرب. ـ تقييم لمرحلة ١٩٦٧. ـ ممارسات الغرب داخل المنطقة.
الموضوع (٥)	مضمون الحوار بين الحاضرين والمسئول العراقى: ـ «تذكر الكاتب لمقولتين عراقيتين الأولى أن العراق سيحرق نصف إسرائيل فى حالة أى اعتداء لها على المزدوج الكيميائي، والمقولة الثابة (أن فلسطين آتية إن شاء الله». ـ تناول قضية الديمقراطية.
الموضوع (٦)	تفسير الكاتب لحدث غزو العراق للكويت بناء على معطيات الموضوعات السابقة الذكر؛ خاصةً فى إطار تصريح المسئول العراقى وتصريح صدام فى ٢٥ يونيو. (إن فلسطين آتية إن شاء الله).
الموضوع (٧)	وهى آخر فقرة فى المقال نصها كالآتى: المقولة الرئيسية الآن، والآن فقط، بعد اندلا ع الحرب أخذت أعطى لكلام المسئول العراقى كامل معناه.. لقد أصبحت أرى فيه الأن كلاماً جديداً مفتاحاً لإعادة كتابة تاريخ المسلسل، الذى أدى ما جرى ويجرى الآن(فلنرجع القهقرى) إذن. بعد أن وضعنا أرجلنا عل موقع يمكننا من قراءة الأمور الماضية والحوادث «الغابرة» قراءة أخرى.. تعطى معنى آخر لدخول القوات العراقية للكويت. إذ يبدو الآن أن العراق لم يدخل الكويت من أجل ثرواتها، بل من أجل تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى.. جديد هو الذى شرحه المسئول العراقى.

ثانياً: ملامح الخلل فى إقامة الحجة

١ نمط ،هذا الأمر ليس بالشرط نتيجة لذلك والتبسيط الزائد لعلاقة السبب وأثره:

ويتجسد هذا النمط فى أن الكاتب قد ربط فى ادعائه دخول القوات العراقية للكويت بالآتى:

(أ) تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى جديد.

(ب) مايفيد أن غزو الكويت خطوة لتحرير فلسطين.

وهنا نقول بأن هذا الأدعاء يفتقد إذاً لوجود عنصر الدحض المسبق، الذى تحدثنا عنه سابقاً Rebuttal ، والذى يتمثل فى الآتى:

إن الكاتب لم يتعرض فى مثل هذه القضية الجدلية إلى قضية غزو بلد عربى لبلد عربى آخر، وهو جوهر الأمر فى سياق الحديث عن المشاريع القومية العربية، واقتضب الأمر كله بالكلمات التالية:

إذ يبدو أن العراق لم يدخل الكويت من أجل ثروتها، بل من أجل تدشين العمل فى مشروع تحررى عربى جديد، هو الذى شرحه المسئول العراقى.

(جـ) تأطير الحديث:

نجد أن «نمط تأطير الحديث» فى شكل ما دون الآخر (النمط الثانى الذى تحدثنا عنه) فى الفصل الربع يتجسد فى أسلوب الجابرى، الذى قدم تفسير الأحداث من خلال سياق تاريخى طويل، كما يتضح ذلك من نص مقالته بملحق الدراسة، إلا أنه فى سرده للتاريخ قد تجاهل السؤال الخاص بمطامع العراق التاريخية لتكوين امبراطورية عراقية من ناحية، وهو ما أعلنه العراق صراحة من أن الكويت جزء منه «المحافظة رقم ١٩» فلماذا يكون المشروع «تحررياً عربياً» كما يقول الجابرى، ولايكون «توسعياً قطرياً!!» كذلك تجاهل الكاتب فى تفسيره لموضوع «فلسطين الآتية إن شاء الله» تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى القريب.. حيث إن هذا التاريخ القريب يثبت عدم جدية العراق فى التصدى لاسرائيل سوى بالعبارات والكلام الطنان فقط؛ فالواقع يقول بأنه عندما ضربت إسرائيل المفاعل النورى العراق بتحد سافر واستفزازى لم يتحرك للعراق حينذاك ساكن.. ألم يرى الكاتب لهذا الحديث هو الآخر «معنى»! إن هذه النقاط توضح أن الكاتب قد أسقط من عناصر حجته عنصر الاتساق والربط Warrant, وهو ماعرفناه على كونه رخصاً للقفزة العقلية (Mental leap) من الادعاء للبيانات أو العكس.

٢ - معقولية أو مصداقية من نستشهد بهم فى سياق حجة ما

من عناصر الخلل فى إقامة حجة أن يستشهد متحاور ما بمقولة شخصية غير ذات مصداقية للطرفين المتجادلين. وهذا ما فعله الكاتب، حين استشهد بمقولة «المسئول العراقى» كما ورد فى الإدعاء الرئيسى بالمقال.

كذلك من أمثلة تفاعلات الخليج التى أوضحت بما لايدع مجال للشك هيمنة نمط «التبسيط الزائد وأثره» «وأن هذا الأمر ليس شرطاً لذاك» ماذكره الملك حسين عن

أن موقف مصر من الأزمة كان من منطلق الانتقام من العراق لموقفها فى إخراج مصر من الجامعة العربية عقب اتفاقيات السلام. الأمر الذى إن دل، دل عن شئ فهو بل عن تجاهل ملك ميكانزمات فى غاية التعقيد ليس لها علاقة بمفهوم «الانتقام الضيق» ويكفى حجم الرسائل العلنية وغير العلنية للرئيس مبارك التى إذا ما قرأت الآن بموضوعية أوضحت أن مصر قد أرسلت كافة الرسائل الواضحة للغاية التى كانت تعكس حرصها الكبير والبين على احتواء الأزمة والحفاظ على قوة العراق لصالح الأمة العربية وكذلك تحرير الكويت. إن هناك رسالة بلغت ٥٦ صفحة بعث بها الرئيس مبارك للرئيس صدام ينبهه فيها إلى العوامل المعقدة التى تحيط بالموقف والتى كان ينبغى وأن يتعامل معها الرئيس العراقى بمسئولية وجدية ومنطق.

ويتمثل هذا الأمر فى أن تستند حجة متحاور ما على معنى واحد لمفهوم أو مصطلح قد يحمل استخدامه معنى مختلفاً بين أعضاء المجموعة الثقافية الواحدة أو من مجموعة ثقافية لأخرى وما أكثر الأمثلة التى تحدث فى تفاعلاتنا اليومية فى العالم العربى والتى توضح اختلاف معنى كلمة مابين الجماعات أو البلدان العربية.

٭ حوارات خلل الايحاءات الناتجة عن تجاهل ثنائية المعنى، "Equivocation" :

كذلك هناك مفهوم معروف فى كل لغات العالم مفاده أن الكلمات القديمة تكتسب معانى مختلفة وجديدة فى أحيان كثيرة، فعلى صعيد التفاعلات فى المجتمع المصرى نجد كلمات «باشا» و«بيك» أو «أفندى» على سبيل المثال انت تعنى لقباً اجتماعياً له معناه المحدد قبل ثورة ٢٣ يوليو ١٩٨٢ وأصبحت لاتعنى نفس الشئ عقب الثورة ثم اكتسبت معنى جدياً فى المجتمع يتسم أحياناً بالإفراط فى إطلاق هذه الألقاب فى التفاعلات الاجتماعية بهدف الاحترام المفرط للبعض، وأحياناً أخرى على سبيل التهكم ومن أشهر هذه المعانى التى استجدت على هذه الكلمات والتى تفيد التهكم ماذكره الرئيس السادات فى أحد أحاديثه حين كان يهاجم بعض الكتاب الذين كانوا ينتقدونه حين قال بعد أن أسماهم «بالأفنديات» إن البلد مش عايزة الأفنديات دول «وأنهم لايفقهوا شيئاً» إلخ، وأصبح تعبير «الأفنديات» منذ ذلك الحين يعنى نوعاً من التهكم من البعض، وهناك عشرات من الأمثلة الأخرى. والمراد قوله هنا أن هناك بعض المفاهيم التى كان لها معنى فى اللغة القديمة، قد اصبح لها معنى آخر فى الاستخدام الحديث للغة، ومن هنا نسلط الضوء على كلمة «الصليبيين» العربية.. وإلى الآن لاتزال هذه الكلمة لها وقع الحملة الصليبية ولكن بقدر ضعيف، فالمعنى الآن فى مجتمع اللغة الإنجليزية وعلى وجه الخصوص فى المجتمع الأمريكى يعنى أى مهمة يقوم بها شخص ما، وليس الأمر الآن بمعنى «حملة صليبية» بدرجة المعنى القديم للكلمة. ففى المجتمع الأمريكى كنا نسمع مسيحى يقول لغير مسيحى "Good luck in your crusade"

والترجمة هى «أتمنى لك حظاً موفقاً فيما تريد عمله» أو فى «حملتك» أو فى «مسعاك».. ومن هنا فإن بيان الأخوان المسلمين فى الأردن، عندما أخذ هذه الكلمة

التى وردت فى النيوزويك (بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٩٠) لوصف الحملة الأمريكية فى الخليج على كونها الدليل الدامغ على أن مايحدث فى الخليج، هو حرب صليبية بحتة من منطلق المعنى القديم لكلمة Crusade، يعتبر أمراً غير دقيق من وجهة نظر تجنب عوامل الخلل فى الحجج.. وهذا لايمنع أن يعتقد الأخوان بالأردن أو أى إنسان آخر أن أمر الحملات الصليبية لم ينته بعد. فهناك من الأدلة الواضحة الآخرى على أن هذه الحملات لم تنته ضد العرب والمسلمين، ويكفى ظهور جماعات المسيحيين الصهاينة التى تنادى إلى الآن بهدم المسجد الأقصى، وإقامة المعبد اليهودى. والأدلة على هذه المقولة معلنة وواضحة عند هؤلاء الصهاينة المسيحيين (انظر لمقال كاتب هذه السطور بخصوص هذا الأمر، فى سياق الحديث عن ديناميكيات الصراع العربى الإسرائيلى (حسن وجيه ١٩٨٧). ولكن ما أود أن أقوله أنه فى سياق إقامة الحجج ينبغى وأن يتسم الدليل بالدقة؛ حتى تكون الحجة سليمة دون خلل، وهذا نوع من الأمانة، فإذا كانت كلمة "Crusade"قد استخدمت لوصف الحملة الأمريكية بتاريخ ٢٠ أغسطس ١٩٩٠ فإن ذات الكلمة نفسها قد استخدمت فى مجلة التايم التاريخ نفسه (٢٠ أغسطس ١٩٩٠) لوصف غزو العراق للكويت على كونه «حملة صدام»-Sad-ams' Crusade (*)، وكذلك وصف صدام على انه Crusader(**) فهل نقول هنا إن المعنى هو أن صدام «صليبى»!! المعنى هو «أنه رجل ذو يقين ما «أو» قائد حملة يقينية ما».

والمثال التالى يوضح تحليلاً كاملاً لعناصر الحجة، مع تسليط الضوء على مصادر الخلل بها، وملامح لبعض خطايا الحوار التفاوضى التى تعرضنا لها.

إخوان الأردن

أصدر الأخوان المسلمون بالأردن بياناً ملتهباً، قالوا فيه لقد جاء يوم الحساب يابوش ويابيكر وياميجور، وصنع الله لكم من أقداره أمة تمرست فى الحرب، ومهرت فى النزال وجاء يوم أعز فيه الله الإسلام، ورفع فيه راية التوحيد، وقد وشحها شعار «الله أكبر»..

وأكد البيان أن الأمريكان قد أعلنوا عن بداية الحرب الصليبية الثامنة، كما جاء فى النيوزويك قبل أسبوعين، وحشد الصليبيون واليهود جنودهم وبوارجهم، وجاءت جميع أجناسهم من ثمانى وعشرين دولة..

(*) نص الجمل كما ورد فى مجلة التايم الأمريكية
"Sadams' Crusade will not succed"(١)
(**) أى أن حملة صدام لن تنجح
U.S has the capcity to master the international effort to stop a vain a moral(٢) cursder like saldam
والمعنى هو إن للولايات المتحدة القدرة على أن تحشد الجهد الدولى المطلوب لوقف هذا / ذلك المحتال عديم الخلق «الصليبى»!! عند حده.

أولا: نص العينة:

وأشار بيان الأخوان المسلمين بالأردن، إلى أن الحرب لم تبدأ منذ الثانى من أغسطس الماضى، ولكنها بدأت منذ سنوات؛ للحيلولة دون إقامة النظام الإسلامى العالمى.

بدأت الحرب الصليبية الثامنة

وقال البيان: لقد تعرضت أمتنا لمظالم الأمم الغربية جميعها، وبيننا وبينها ثارات وثارات، وأنى لنا بالإحاطة بها وهى فى بلادها؟! فكان قدر الله أن يجعلها على صعيد واحد، على أرضنا المباركة الطهور «قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين»..

ودعا البيان الشعوب العربية والإسلامية إلى المشاركة فى معركة المصير والتحرير، ونصرة أخوانهم فى العراقى وفى فلسطين، حتى يأذن الله بنصره وتحرير الأرض المقدسة المباركة فى فلسطين وسائر بلاد المسلمين..

جريدة الشعب ٢٢ / ١ / ١٩٩١

ثانيا: تحليل عناصر الحجة الرئيسية بالعينة: انظر الشكل التالى (٢)

تحليل الحجة إلى عناصرها الأساسية والفرعية

عناصر الحجة

المقولة الرئيسية Claim

* دعوة الشعوب العربية والإسلامية إلى المشاركة فى مقاومة الحملة الصليبية الثامنة والمشاركة فى معركة المصير والتحرير ونصر الأخوان فى العراق وفلسطين إلى أن يتم تحرير فلسطين وسائر بلاد المسلمين.

البيانات Data

* الدليل الذى تستند إليه المقولة الرئيسية هو. أن الأمريكان قد أعلنوا عن بداية الحرب الصليبية الثامنة، كما جاء فى النيوزويك قبل أسبوعين

عنصر الاتساق Warrant

* الربط بين المقولة الرئيسية والبيانات يتمثل فى أن الحرب لم تبدأ منذ الثانى من أغسطس الماضى، ولكنها بدأت منذ سنوات للحيلولة دون إقامة النظام الإسلامى العالمى.

عنصر تدعيم عنصر الاتساق Backing

* إن الأمة قد تعرضت لمظالم الأمم الغربية جميعها وبيننا وبينها ثارات وثارات.
* إن الله «قد جمع لنا هذه الأمم على أرض واحدة» من هنا فإن الدعوة تمثل فرصة يجب انتهازها.

مصادر الخلل فى الحجة وملامح إشكاليات الحوار التفاوضى

مصادر الخلل فى الحجة وملامح إشكاليات الحوار التفاوضى العربى

(١) إن عنصر الدحض والتفنيد المسبق (Rebuttal) يفتقد إلى التعقل كصفة أسلامية أساسية، دعى الله المسلمين إليها بحيث أن عليهم أن يتوخوا الحذر عند الحديث عن معركة مقبلة لم تبدأ بعد.. «لقد جاء يوم الحساب بابوش ويابيكر وياميجور وصنع الله لكم من إقداره أمة تمرست فى الحرب ومهرت فى النزال.. وجاء يوم أعز فيه الله الإسلام..» (سلبية نمط «تضخم الإحساس بالذات» [النمط رقم (٢)]

(٢) اتسمت عناصر الحجة المختلفة بنمط التهييج والاسترسال العاطفى وإساءة استخدام سلطة النص، وذلك بالاستشهاد بنص من نصوص الجهاد دون الأخذ بأسبابه بحذر وتعقل ومقدرة. كذلك اتسمت المقولة بالتركيز على الموسيقى اللغوية فى بناء النص لإثارة مشاعر وعواطف الشارع العربى والإسلامى، وتعبئتها، دون إمعان النظر فى خطورة الموقف وحيثياته الدقيقة. وهذه الخصائص تضعف من معقولية وموضوعية مقدم الحجة (Qualifier).

(٣) خلل التبسيط الزائد بين السبب وأثره وتجاهل السؤال الرئيسى؛ حيث إن سبب الحرب ليس دينياً، وإنما هو احتلال العراق للكويت، الذى انتهزه بطبيعة الحال أعداء العرب والمسلمين للحصول على أقصى حد من هدم قوة العرب والمسلمين نظراً للريبة والشك التى ينظر بها الغرب للاسلام وللعرب والتى دعمتها تصرفات مثل ما أقدم عليه صدام العراق من مقولات تحدٍ جوفاء وعداء كلامى.

(٤) خلل الإيحاءات الناتجة عن تجاهل ثنائية المعنى Equivocation وهو ما قصدنا الحديث عنه، ويتمثل هنا فى الاعتماد على المعنى القديم لكلمة "Crusade"(الحملة الصليبية)، والذى ورد بالفعل استخدامه فى مجلة النيوزويك كدليل يدعم المقولة الرئسية دون الوعى ـ عمداً أو سهواً بمعنى الكملة الإنجليزية التى تعنى فى الوقت الراهن معنى «حملة» أو «مهنة» ـ لتحقيق هدف يقينى «والدليل على ذلك أن نفس الكلمة قد استخدمت لوصف عدوان صدام على الكويت«Sadams) Crusade) وكذلك وصفه بأنه "Crusader"

وفى ختام هذا القسم الذى أوردت من خلاله المفاهيم الرئيسية وعناصر عملية إقامة الحجج، وأوجه الخلل بها من خلال أمثلة من واحد من أهم وأخطر ملفات التفاعلات العربية العربية فى العصر الحديث.. أود أن أقدم تفصيلاً وأمثلة من واقع الحوار الاجتماعى والإدارى والسياسى لتلك المعادلة المهمة التى أشرح إليها وفى القسم الأول والخامس بمجرة المفاهيم ذات العلاقة الوثيقية بمفهوم «التسلط»، وهى ما أسميتها بالإنجليزية بمعادلة IpI والمعبرة عن مفاهيم الاستقلال والقوة / السلطة والاندماج (Indepdence -Power Auth ority - &Involv em ent)

وتكمن أهميتها فى أهمية ضبطها بدقة فى عملية التفاعل؛ بحيث يتمكن المتحاور فى أى سياق تفاعلى أن يمارس المسلطة أو القدرة المخول إليها دون تسلط وأن يندمج مع الآخرين، دون إهدار لمكانة أو التعرض لبلدوززات الحوار الذين قد ينتهكوا عناصر رشيدة فى الحوار تتعلق بالخصوصية أو بالسيطرة على ساحة الحوار.. إنها معادلة مهمة نود أن نوضحها أكثر من خلال الأمثلة الحية.. وضبطها على النحو الأمثل يجسد أحد أهم المعادلات الحوارية، التى تنتمى إلى ثقافة التفاوض الإيجابى من ناحية، وتخطى ملمح سلبى من ملامح الخطاب التسلطى وهى كما يلى:

معادلة الاندماج، والاستقلالية، والقوة فى عمليات التفاوض الاجتماعى والسياسى

هذه المفاهيم الثلاثة تحتاج إلى كتاب منفصل لتوضيح كل منها كمفاهيم متخصصة تدارسها خبراء علوم اللغويات الاجتماعية والعرقية والعلاقات الدولية، ونود أن نتناولها هنا بنوع من الإيجاز غير المخل إلا أننا بحاجة إلى عملية ضبط مستمر لمعادلة هذه المفاهيم لما لها من أثر بالغ على عمليات التفاوض الاجتماعى والسياسى، ونوضحها أولا ببساطة فيما يلى:

أولاً: مفهوم الاندماج "Solidarity" و "Involvement"، وهو أهمية أن نحقق قدراً من الاندماج والتآلف والتلطف مع طرف الحوار؛ بحيث تصل رسالة واضحة للآخر بأننا نرغب فى التعامل والتعاون معه والجلوس إليه، وهنا تثار أسئلة مثل إلى أى مدى وكيف ننجح فى تحقيق ذلك؟ وإلى أى مدى يؤثر ذلك على عملية التفاوض وطبيعة المفاوضين (داخل الثقافة الواحدة وعبر الثقافات؟!) وما هو مقبول ومؤثر، وما هو غير مقبول ومنفر؟

ثانياً: مفهوم الاستقلالية (Independence)

من المهم أن توظف أدوات الاندماج مع الآخر والتلطف، ولكن بحيث لايؤثر ذلك على خصوصيتك واستقلالك كمفاوض.. أى أن نحقق ونرسى مبدأ مثل مبدأ الخلاف لايفسد للود قضية.. أى أن نختلف مثلاً دون حرق الجسور والوصول إلى حالة اللاتفاوض، بسبب أو لآخر، وما هو مقبول ومؤثر، وما هو غير مقبول ومنفر فى هذا الصدد أيضاً؟

ثالثاً: مفهوم القوة أو القدرة

وهو أكثر المفاهيم تعقيداً وليس هناك أكثر من التعريفات، التى وردت عن هذا المفهوم؛ خاصة فى مجال العلوم السياسية والعلاقات الدولية، وهو الأمر الذى حدى بـ (Lasswell)عالم السياسة الشهير بأن يقول إننا حينما نتحدث عن علم السياسة إنما

نحن بصدد الحديث عن علم القوة أو القدرة (© POWER)[٣٩]. ولقد أوضح كاتب هذه الدراسة فى سياق آخر أن تعريف القدرة أو القوة من منظور سلوكى تمازجى يستمد مفاهيم من علوم اللغويات والعلوم السياسية والعلاقات الدولية، يمكننا من التعرف الدقيق لمهارات واستراتيجيات التفاوض والتساوم وتعقيداتها. إن الذى أريد أن أوضحه فى سياقنا هذا هو أن كلاً من مفهوم «الاندماج» «والاستقلال» فى الحوار الاجتماعى والإدارى والسياسى يرتبطان بصورة مركبة بمفهوم القوة أو القدرة، فعلاقة المفهومين بمفهوم القدرة تختلف إذا كان الحوار بين صديقين متكافئين، أو موقفين متكافئين ادبياً أو مادياً أو اجتماعيات وسياسياً، أو بين مرؤسين ورؤساء، وبين طالب وأستاذ وبين هيئه التحقيق القانونى ومتهم. وفى كل من هذه السياقات، هناك عديد من الأمثلة، التى ينبغى وأن نتعلم منها أن المفاوض الحريص والناجح، هو الذى يحسن صياغة هذه المعادلة بالدرجة التى تمكنه من تحقيق ناتج تفاوضى إيجابى، وألا يكون ضحية لميكانزمات هذه المفاهيم فى حوار تفاوضى وما، يتسبب فى مشاكل له أو فقدان الناتج الإيجابى من العمليه التفاوضية، دون داع. ولذلك سوف يتسع هذا الفصل لعدد من الأمثلة، التى تعبر عن مستويات متعددة توضح تأثير معادلة المفاهيم الثالثة على ناتج التفاوض، سواء كان اجتماعياً أو إدارياً أو سياسياً الأمثلة على النحو التالى:

المثال الأول: بين رفع الكلفة وإهدار المكانة!

ماذا يحدث لو أن أستاذاً بالجامعة من الاساتذة المحبوبين، أو مديراً ذا شعبية فى عمله، أراد أن يتلطف من باب «الاندماج والتوحد»، وأن يقوم بإزالة الحواجز والألقاب الرسمية بينه وبين معاونيه، ومن بعملون تحت رئاسته بأن يناديهم بأسمائهم أو حتى بالأسماء الأخرى لهم (ابراهيم ـ أبو خليل، حسن ـ أبو على ، مصطفى ـ درش) وعندما ينطق بهذا اللقب كنوع من التلطف يواجه بالشخص الآخر، الذى يريد أن يحقق ـ عن غير إدراك نوعاً من التلطف المقابل بأن يعامل أستاذه أو مديره الكبير بأن يناديه دون لقب دكتور أو فلان بك كما قد يتطلب سياق الإدارة أو الموقف.. ألا نجد هنا أن الاستاذ أو المدير عادة ما يقوم فوراً بتوظيف الأدوات الحوارية، التى تعكس على الفور مكانته الحقيقيه فى الحوار، والتى تعكس قدرات ومكامن القوة المتابينة بينه وبين الطرف الأقل فى المنصب أو فى السياق؛ حتى يضع الأمور فى نصابها الصحيح.

المثال الثانى: بين بلدوزر الحوار والغزو السافر للخصوصيات!

إذا كان هذا السياق السابق على مستوى الألقاب وتوظيفها، وهذا ماتم توضيحه فى الفصل الرابع عشر؛ خاصة فى مجال التفاعل السياسى، حيث أوردنا فى سياق آخر حيثيات الموقف التفاوضى بين طارق عزيز وجيمس بيكر.. فإن هناك مستوى أعمق يوضح لنا أهمية هذه المعادلة (أى معادلة الاندماج والتوحد، مع التأكيد على

الاستقلالية) وإظهار مكامن القوة فى الحوار الاجتماعى اليومى.. تصور مثلاً مكالمة تليفونية بينك وبين صديق أو قريب بدأ بالسؤال عن الصحة، ثم تطرق إلى إخبارك الشخصية، ووجدت الطرف الآخر يتخطى العموميات ويتوغل فى الأمور الشخصية، والتى تعتبرها تخصك أنت فقط، ولاتريد أن يتدخل أى إنسان فيها حتى لوكان صديقاً أو قريباً دون أن تطلب أنت منه ذلك.. هنا تجد أن دور الاندماج والتوحد والتلطف بدأ يساء استخدامه فى الحوار، وبدأت تشعر بأن هناك نوعاً من «الغزو» لخصوصيتك (أو استقلالك) . فإذا كنت جريئاً.. ستوقف هذا الطرف بطريقة أو بأخرى؛ أى بأسلوب لبق وإذا لم يستجب فإنك قد توقفه بطريقة حاسمة... إذا كانت شخصيتك قوية، ولم تنفع معه الطريقة الحاسمة المهذبة.. فإنك قد تواجهه بطريقه فجة، ولكن الأمر يختلف من شخص إلى آخر، وهنا تجد كثيرين فى مجتمعنا العربى.. يجدون صعوبة بالغة فى إيقاف «بلدوزرات الحوار»، التى تسئ إلى مفهوم الاندماج والتوحد والتلطف، وتقوم بعملية غزو سافر لخصوصيات الآخرين، ومن هنا يستجيب الكثيرون لهذه «البلدوزرات»، إلى الحد الذى يؤدى إلى فقدان الاستقلالية والخصوصية «فتدهسهم» مثل تلك «البلدوزرات».. الأمر الذى يحاول معه الطرف المصاب بفقدان خصوصياته استرداد وضع الخصوصية والاستقلالية. ولكن ـ وفى أحوال كثيرة ـ يكون ذلك بعد فوات الأوان.. الأمر الذى يوتر العلاقة ويؤثر على أى عمليات تفاوضية تكون جارية.. ولذ فإن المفاوض الناجح والحذر يعمل من البداية فى أى سياق تفاوضى على ضبط معادلة الاندماج والاستقلال من بدايه التفاعل؛ فيوظف أدوات القوة المناسبة للحوار، التى يراها مناسبة لسياق التفاعل بالطبع، ولكن عليه أن يتبنأ أو يستشف بقدر الإمكان نجاح استريتجيات «الاندماج والتلطف»، وإلى أى مدى يوظفها، ومدى نجاح توظيف استراتيجيات «الاستقلالية وإظهار القوة (القدرة) سواء فى المركز الأدبى أو العمل أو خلافه «بطريقة لبقة....»

المثال الثالث: المعادلة فى حوار أستاذ جامعى ورئيس «جامعة المستقبل»!

الموضوع: أحد الأساتذة الجامعيين الميسورين يريد أن ينشيء جامعة أهلية، ويكون هو رئيساً لهذه الجامعة، وهو شخص يجيد مجاملة الآخرين، يستحضر أحد زملاته من الأساتذة المرموقين، الذين كان لهم تحفظ وعدم اهتمام كبير بالموضوع محل التفاوض ويدور بينهم الحوار التالى فى التليفون: مدير جامعة المستقبل: «أنا اشتريت قطعة ارض ودفعت فيها ملايين علشان» اتجنب أن إجيب رجال أعمال مثلاً تشارك فى التأسيس لأننى عايز الجامعة تكون كلها أساتذة فقط، وأنت عارف الأساتذة الجامعيين فى بلدنا

غلابة وليس لديهم إمكانيات مادية ولكن أنا أختار أفضل العناصر فى بلدنا من الأساتذة فقط، ولذا أرجو أن تضع برنامجاً كاملاً عن «موضوع تخصصك» حتى نقدمه ضمن متطلبات الحصول على إذن بإنشاء هذه الجامعة..

الأستاذ الجامعى:

طبعاً أنت عامل عقود للناس.. علشان يبقى الشغل على أصول؟!

مدير جامعة المستقبل: هو فيه بينى وبينك عقود

الأستاذ الجامعى: لابد أن تكون فيه شكل رسمى ليس معى على وجه الخصوص، ولكن مع الآخرين عندما نريد أن يكون هناك أسس للتعامل المباشر والواضح

مدير جامعة المستقبل: أنا منتظرك فى مكتبى (ويحدد موعداً) ويضيف «ودى آخر مرة اطلب منك الاشتراك معنا فى الشغلده»

الحوار بالمكتب:

الأستاذ الجامعى: إيه الحكايه كلها؟! مدير جامعه المستقبل «يقص الحكايه» مع إظهار مكامن القوة والاتصالات الكبيرة لديه ويطلب منه فى النهاية نفس الطلب... أى تعاون الأستاذ معه ولكن يقدم معه، نموذج مكتوب، ينص على وجود عدة اختيارات بخصوص التعاون فى انشاء مثل هذه الجامعة وهذا النموذج يشمل عدة أوجه للتعاون واحدها أن مايفعله سيتقاضى عليه أجر.. أو له أن يتبرع به أو بأى مبالغ أخرى للجامعة ويعتبر مساهماً فيها وله أن يؤجل مايستحقه حتى موعد افتتاح الجامعة، ويكون ذلك بمثابة بطاقة أولوية فى تعيينه أو اعطائه محاضرات تبلغ قيمة المحاضرة أضعاف ما يتيحه سوق العمل الراهن

الأستاذ الجامعى: يطلب إعطاءه قائمة بمحددات المطلوب منه لدراسة الأمر، ويقوم «طيب لوقمت بهدا العمل سوف يآخذ على الأقل من ثلاثة إلى أربع أسابيع»

رئيس جامعة المستقبل: لا... هذا كثير جداً

الأستاذ الجامعى: لكننى مشغول جداً.. عندى ندوة مهمة هذا الأسبوع بالإضافة إلى التزامات أخرى.

رئيس جامعة المستقبل: الغى هذه الندوة.. ده أنا بأشتغل ١٤ ساعة فى اليوم!

الأستاذ الجامعى: وأنا باشتغل عشرين!!

رئيس جامعة المستقبل: تيرة «هات ملف واستمارة» هنا، ويعطيهم للإستاذ وينتهى الحوار.

يبقى أن نقول إن ناتج الحوار التفاوضى الذى حدث هو أن رئيس جامعة المستقبل قد أخفق بالفعل فى إقناع ذلك الأستاذ الجامعى للعمل معه، لعدة أسباب منها مايتعلق اساساً «بمعادلة الاندماج والقوة»، وهى كالآتى:

لقد شعر هذا الأستاذ الجامعى بعد هذا الموقف التفاعلى أن استراتيجيات «الاندماج من قبل رئيس جامعة المستقبل» كانت غير موفقة لأنه لم يحسب أن الأستاذ الجامعى الذى زاره هو الآخر مشغول بأمور كثيرة.. وأنه يطلب منه إلغاء ارتباطات بجدوله الخاص؛ ليتسع لوقت جامعة المستقبل، بالإضافة إلى أن الأستاذ الجامعى كان قد قدم شبه اعتذار سابق عن العمل فى نفس ذات المشروع من قبل، وأن قول رئيس الجامعة له قد تجاوز للعشم إذا كان هذا وارداً، ويعتبر غزواً لاستقلالية الأستاذ الجامعى.. أضف إلى ذلك أن مدير جامعة المستقبل قد عبر ولو بصوره لاشعورية عن إظهار قوته واتصالاته ومكانته بصورة زائدة فى أكثر من سياق.. الأمر الذى لم يحقق أثراً إيجابياً فى انطباعات الأستاذ الجامعى، بل على العكس ترك انطباعاً سلبياً.. وهذا الناتج الكلى أشعر الأستاذ الجامعى بعدم الارتياح التام للعمل والتعاون الراهن، فماذا عن المستقبل، فلقد شعر الإستاذ أن رئيسه فى المستقبل لايضبط معادلة الاندماج والاستقلالية والقوة بالمستوى الأيجابى المطلوب، فأنهى عملية التفاوض من جانبه مع جواب اعتذار لطيف مع الملف، وأرسله لسكرتير رئيس جامعة المستقبل..

المثال الرابع: رؤية للمعادلة فى حوار الرجال والنساء!

الموضوع هنا هو عن طبيعة حوارات الرجال والنساء وسوء الفهم، الذى قد يحدث بسب فقدان ضبط معادلة «الاندماج والاسقلالية والقوة»، ولقد أفادتنا د/ Tannen فى كتابها المهم بعنوان:

«**ليس هذا ما أعنيه**»[٤٠] عن طبيعة مفهوم «القوة والتضامن» (أو الاندماج) (Power & SoLidarity) فى فصل كامل، ثم توسعت الكاتبة فيه فى كتاب اخر حديث «بعنوان هو وهى والحوار»[٤١] قال لقب أفضل الكتب المباعة فى الغرب عن هذا الموضوع[٤٢]، اشتمل هذا الكتاب على أمثلة ترتبط أساساً بالمرجعية الغربية، وعلى القارىء المهتم الرجوع إلى هذا الكتاب، ولكن لاشك أن هناك أشياءً مشتركة عبر الثقافات، كما يتضح ذلك من مقولة د / Tannen" بأن الحوار بين الرجل والمراة فى أى مجتمع قد يصبح فى أحيان أو لحظات معينة مثل الحوار عبر الثقافات، وأحياناً

يصل الأمر إلى مستوى «حوار الطرشان»، ولكن هذا الموضوع بحاجة مستفيضة للدراسة؛ خاصة إذا نظرنا إلى ساحة المستجدات فى تفاعلاتنا الثقافية؛ فلقد ظل الشائع دائماً ذهاب البعض إلى أن المرأة العربية الشرقية مكسورة الجناح مهضومة الحق مظلومة دائماً، وإذا نظرنا إلى صورة عناصر المعادلة المشار إليها آنفاً لقلنا إن الرجال قد أساءوا كثيراً فى عملية ضبط معايير هذه المعادلة بصورة عادلة فى حوارهم عن المرأة العربية، سواء كانت زوجة أو أخت أو زميلة فى العمل.. ولكن المراقب لتفعاعلات الساحة العربية الثقافية فى الوقت الراهن يجد مستجدات أخرى؛ حيث نجد كثيراً من النساء فى تفاعلاتهن يفتقدن إلى الحس السليم فى مراعاة عناصر المعادلة بصورة عادلة، بل تتسم تفاعلات البعض منهن بالتجاوز العكسى الشديد لعناصر هذه المعادلة.. ولعل الخبر التالى، والذى ظهر فى الصفحة الأولى بجريدة الأخبار القاهرية يوضح هذا الأمر:

مدرس ثانوى يخنق زوجته لأنها متسلطة!!

أنه وبالرغم من قسوة وقبح هذا الخبر، إلا أنه يدعوننا لتأمل مستجدات على الساحة.. بقول الخبر مدرس ثانوى يخنق زوجته لأنها متسلطة: «خنق مدرس ثانوى زوجته بسلك كهرباء أثنا نومها وسط اطفالها.. واعترف أمام النيابة بأنه قتلها لأنها امرأة متسلطة»(٤٣). إن هذا الخبر وما يتعلق بأشباهه أصبح كثير التردد، فهناك أخبار عديدة تطالعنا بها الصحف عمن «ذبحت زوجها ووضعته فى أكياس البلاستيك».. أليس فى هذه الأمثلة المستجدة على ساحة تفاعلاتنا الثقافية مايدعونا إلى تأمل عناصر معادلة «الاندماج والاستقلالية والقوة فى هذه السياقات المستجدة؛ خاصة تلك التى أوصلتنا بالفعل إلى حالات التناحر «واللاتفاوض» واستخدام السلاح الأبيض»!

المثال الخامس: السادات يحاول ضبط المعادلة!

الموضوع: محاولة الرئيس السابق السادات إعادة بناء الجسور مع المثقفين العرب والمصريين، كنوع من تدعيم شرعية حكمه خاصة بعد مبادرته للقدس وماتلاها من ردود أفعال فى ذلك الوقت.. وفى مسعاه هذا حاول على التأكيد على بعض منطلقات مثل هذا الحوار، الذى اراد أن يجريه مع واحد من هؤلاء المثقفين والذى ورد فيه شكاوه من المثقفين، من أنهم لايحسنون الحديث أو الحوار معه بالقدر الكافى من حيث عدم مراعاة ادأب مخاطبة الحاكم؛ فهو «رئيس الدولة أو كبير العائلة المصرية والعربية» ومما كان يعتب به خصوصاً على المثقفين المصريين أنهم لم يقرأوا القرآن الكريم جيداً.. وإلا وعوا أن الله سبحانه وتعالى بكل جلاله وعظمته كان يعمل حساباً خاصاً لحاكم مصر المهيب... أو مما كان يردده السادات دائماً أن الله سبحانه جل جلاله قد أرسل الأنبياء والرسل لشعوب وأقوام وقبائل حول مصر. ولكنه لم يرسل أيا منهم إلى شعوب عندما كان الأمر يخص إرسال أنبياء ورسل إلى مصر، ولذلك فإن الله حينما أرسل أحد

انبيائه، فقد كان ذلك لحاكم مصر وليس لشعبها، وحتى فى هذه الحالة النادرة فقد أعطى الله سبحانه وتعالى تعليمات واضحة صارمة لرسوله فى كيفيه التخاطب المهذب مع حاكم مصر وتمثل ذلك فى قوله تعالى لموسى عليه السلام «اذهب إلى فرعون أنه طغى وقل له قولاً لينا،» وكان الرئيس السادات يستغرب كيف تكون هذه التعليمات الإلهية إلى موسى، وهو من أقوى الانبياء، فى طريقة التخاطب والحوار مع «فرعون»، ثم ياتى المثقفون ويتحدثون معه أو عنه بلا تبجيل أو تهذيب، أو «قول لين»[٤٤]

إن ما أوردناه كان سياقه الخاص، ولكننا يمكننا أن ننظر إليه هنا فى إطار معادلة المفاهيم الثلاث وأهمية ضبط عناصرها (الاندماج والاستقلالية والقوة) فأى متحاور ذى سلطة ما، يريد أن يؤكد على صلاحياتها وهذا حقه، وهو قد يريد كذلك أن يندمج مع الأخرين دون أن تمس استقلاليته وصلاحيات سلطاته وقدراته أو قوته؛ فهى أهم عناصر مركزه التفاوضى. فما بالنا بسلطة كسلطة الحكم. إن أمر التفاوض الإيجابى يتحقق عادة إذا كان هناك احترام للسلطه عندما لايتجاوزها من يملكها ولايتعدى عليها من لايملكها فى حالة الحاكم والمحكوم والقاضى والمتهم، الطبيب مع المريض، والأستاذ مع الطالب، وإلخ. فمن الأمور التى تعتبر بمثابة نوع من الاشتباكات الخاطئة فى واقعنا هو تجاوز من له سلطات فى استخدامها فيكون مستبداً أو متسلطاً.. وأحيانا يكون هذا الطرف الذى لايملك السلطة دون وجه حق، أو عن إحساس وهمى وخلط بين ممارسة سلطة ما وأمر التجاوز والاستبداد فى استخدامها ولقد ثبت من خلال عديد من تفاعلات تحليل التفاوض فى مجال الإدارة مثلاً، والتى كان إحد اطرافها أحدى الشخصيات الإدارية والمستبدة المتسلطة، وكان الطرف الآخر فى موقع الأضعف، ومع ذلك نجح الموقف الاضعف فى تحقيق «أجندته»، عندما قرر ألا يصطدم بالسلطة الممنوحة لرئيسه «المدير العام»، أو محاولة عدم الاكتراث بها أو التركيز على الشخصانية فى التعامل، ولكن محاولاته ركزت على طرق موضوعية غير منفعلة ومشروعة فى الحوار، وطلب الالتماس، بعد رفض أحد طلباته بناء على قواعد القانون والإدارة السليمة، فى حين اختار البعض الأخر فى نفس الوضع منطق عدم الاكتراث بسلطة المدير ومحاولة النيل منها، فلم يفعلوا شيئاً سوى استنفار كل عنف واستبداد المدير المتسلط، فلم يحققوا شيئا سوى مزيد من التعسف والاستبداد من قبله، وظلت أجندتهم معلقة دون أن يتحقق أى شىء منها، وكانت الخسارة لهم فى المقام الأول بعد أن أسهموا فى الوصول بالموقف إلى حالة من حالات «اللاتفاوض»..

القسم الرابع:

الخلاصة وتوصيات لصانع القرار

مما سبق يمكننا الخلوص إلى الآتى:

(١) إن «التسلط» ومجرة المفاهيم المصاحبة له لتمثل جذور التطرف فى الفكر والممارسة، وهذا المفهوم الأخير هو وقود الأرهاب.

(٢) إن «التسلط» يمارس فى أحيان كثيرة ـ إن لم يكن فى أغلب الأحيان «بطريقة غير مشعورة على مستوى اللاوعى، ومن قبل ممثلى التيارات الفاعلة فى ساحة واقعنا الثقافى وهذا ما أوضحته دراسة كم كبير من واقع هذه التفاعلات. وهذا الأمر يساهم بلاشك فى إعاقة العمل الجماعى الخلاقى، اللازم لكافة الأعمال التنموية، والوصول إلى أنسب القرارات المبنية على أساس التفاوض الجماعى المثمر.

(٣) إذا كان لهذا البعد السابق مغزى.. فإننا نقدم هذه الدراسة لاساليب وممارسات ظواهر الحوار التسلطى بهدف المعالجة العلمية بتوزيع وتسليط الضوء على هذه الظواهر؛ خاصة الأساليب الخطبية منها، وتوضيح الجانب التقنى الذى ينبغى الإلمام به والتدرب فى إطاره؛ لوقف هذه الممارسات التى تمثل بالفعل وقوداً للتطرف والإرهاب بأشكاله ومستوياته المتعددة.

(٤) إذا كان هناك قطاع كبير يمارس أدوات وأساليب التسلط بطريقة غير مشعورة أو فعل، وبعد أن انتقلت «عدوى» التسلط لهم، فإن معالجة هذه العدوى «الوبائية» تحتاج إلى أن نلفت النظر إلى قطاع آخر، يمارس التسلط من واقع اجتماعى وإدارى وسياسى وهياكل لاتشجع إلا على هذه الممارسات ـ وهى كثيرة. ولقد تناولت بعضها فى دراسات أخرى، وهناك دراسة تفصيلية أخرى، تتناول الواقع الإدارى فى صدد الانتهاء منها، ولكن الجزء الذى أتممته وأشرت إليه فى هذه الدراسة، هو دراسة بعنوان «مباريات التفاوض الإدارى: الجامعات المصرية كنموذج[٤٥]، والتى أوضح من خلالها أن هيكل مثل «نظام الكنترول» الراهن فى الجامعات المصرية ليمثل أكثر الأمثلة

وضوحاً لتأثير هيكل التواصل على طبيعة الحوار وآلياته... فنظام الكنترول الراهن ليعطينا صورة واضحة عن نموذج الإدارة الأكاديمية التسلطية فى جامعاتنا، والتى من المفترض وأن تقود كافة الأعمال التنموية، وتكون النموذج المحتذية به مشاكل الواقع فى مجالات الإدارة والبحث العلمى، الذى يعالج مشاكل الواقع بإيجابية وفعالية، فهذا الهيكل المولد لأنماط متسلطية عديدة يتسم، وبإيجاز، وبما يلى:

(أ) الإصرار على إهداء الوقت والمال بشكل غير مقبول على الإطلاق «فالكنترولات» تبدو مايقرب من نصف وقت الدراسة... أى إننا ننشغل بتقييم الطالب أكثر مما ننشغل بتكريس الوقت لإعداده لسوق العمل... (هنا نرى إبادة لوقت ثمين لايمكن تعويضه)

أما إقامة الامتحانات بالأسلوب الراهن فهذا إما مبدأ للمال العام. وهناك أساليب أفضل قدمت تفصيلاً لها فى الدراسة المشار إليها

(ب) لم يصب هذا «الكنترول» ـ الذى لابد من إلغائه إذا تحدثنا عن التنمية الحذيثية وتفاعلات القرن القادم التطوير؛ منذ عام ١٩٢٥، أى منذ إنشاء أول جامعاتنا الأهلية.. وأحيط بهالة من التقديس الغريب وتكريس القائم السلبى.

(جـ) تحول كثيرون من الأساتذة بفعل ممارسات هذا الكنترول إلى كتبة وإداريين يمضون كثيراً من الوقت فيما لايخدم الدور المنوط بهم أساساً وهو التدريس والأبحاث والخروج لتنمية المجتمع والانشغال المتلاحق بمشاكله فى ظل إيقاع هذا العصر وتحول مع ذلك مفهوم الكنترول إلى معانٍ تستوجب ترسيخه، بل اعتباره دليلاً على الإدارة والانضباط، وهذا يعين فى حقائق الممارسة.

(د) أوجد هذا الكنترول كثيراً من أنماط التسلط الإدارى حيث انعكست الآية. ويمكن للإدارى بالجامعة أن يتسلط ويجبر الأساتذة على الانصياع إلى لائحة مالية بشكل حرفى مقيت لايقبل المناقشة؛ إى إن التسلط هنا وفى هذه الحالة من الموظف الأصغر للسلطة الأعلى فى الجامعة.

(هـ) ينبنى نظام الكنترول الراهن ـ مثله مثل نظم وهياكل تسلطية عديدة ـ على التعامل على أساس من عدم الثقة فى الأستاذ الجامعى، وهذا عكس كافة الجامعات، بل على عكس ماكان سائداً فى جامعة الأزهر ـ أعرق جامعات العالم ـ منذ مئات السنين مثلاً...

(د) يتصور البعض أن نظام الكنترول الراهن هو «نظام سياسى» معنى بإلهاء الأساتذة وضبط حركة الطلاب والسيطرة على الجامعات أساتذة وطلاباً، ولكن هذه الحجة لابد وأن تكون ضعيفة لأنه حتى وإن صحت فهناك أساليب أشغال أفضل بكثير تعود على الجامعات والتنمية والبلاد بالفائدة للجميع، مع تحقيق غرف الأشغال، إن صحت هذه الحجة الواهية.(٤٤)

لقد قدمت الدراسة تفصيلات كثيرة، ولكن كان ماتقدم مجرد إشارة لنوعية من الهياكل المولدة لتفاعلات تسلطية عديدة.

(٥) إن ممارسات «الإعلام» ــ فى كثير من الحالات ــ قد أخفقت فى علاج ظاهرة التطرف ــ بل إنها نجحت بالفعل فى تأجيج الصراع بشكل مخيب للآمال.. ولقد أوردت أمثلة عديدة توضح هذه النقطة فى سياق هذه الدراسة. ولعل أحدث هذه الأمثلة هو خلط كثير من الأوراق حين يختزل بعض «المثقفين» وكذلك بعض الأفلام والمسلسلات التى حاولت معالجة ظاهرة التطرف، الاوضاع بأن يكون الدفاع مثلاً عن ممثلة أو راقصة «مبتذلة» بمثابة الوقوف خلفها والدفاع عن فنها الرفيع، فى مواجهة جحافل الظلام و«الظلاميين»، وكأى مجتمع «أبيض« أو «أسود» إما «الرقص والمجون» أو «الهوس الدينى والتطرف»!!

إن صور الإعلام فى كثير من الحالات تأرجحت بين هذا «الأسود القائم» وهذا «الأبيض الناصع» دون انطباق المسميات على واقع الأمور. إن كثيراً من تفاعلات الإعلام انصبت فى مفهوم «التصنيف المتسرع والمتعسف للأحداث والأشخاص..

(٦) أوضحت هذه الدراسة أن «التسلط» والتطرف والإرهاب ومجرة المصطلحات المتعلقة لاتقتصر بالطبع على وصف أوضاع وأحداث فى واقعنا الثقافى فقط، بل إن ساحة التفاعلات الغربية، والتى يدعى كثيرون من الغربيين أنها ساحة الديمقراطية والتواصل الفعال، نموذج هى الأخرى بكثير من حالات التسلط، التى تؤدى إلى التطرف والإرهاب، خاصة فى تفاعلات مايمكن وأن نسميه بتفاعلات الغرب مع العالم العربى والاسلامى. ولقد أوردت فى سياق هذه الدراسة ودراسات أخرى عديداً من الأمثلة، التى توضح ترديف الإعلام الغربى لمصطلحات «عربى» و«مسلم» و«إرهابى»، وكذلك وجود معايير مزدوجة فى الغرب بخصوص مفهوم الإرهاب والتطرف

القسم الخامس

سياسات واستراتيجيات لصانع القرار

توصيات لصانع القرار

مما سبق نجد أن هناك سياسات واستراتيجيات، يتعين على صانع القرار أن يأخذها بعين الاعتبار فى مجالات التفاوض العربى الإسرائيلى، والتفاوض العربى الغربى، وفى التعليم والإعلام والدعوة، وهى كما يلى:

(١) على صعيد التفاوض العربى الإسرائيلى وثقافة السلام... لابد من أن يتعامل المفاوض الممثلى للواقع العربى الإسلامى مع جذور مشكلة «الأصولية» الصهيونية مثلاً، التى تعتبر أكثر ما يهدد أسس ثقافة السلام اللازمة لإقرار السلام العادل؛ أى المطلوب هو حصار واحتواء هذه الأصولية وقطع الطريق عليها على الصعيد الدولى وتوظيف الآليات التى توضح مطالب السلام العادل بشكل مكثف، ومنها مطالبة إسرائيل بتدعيم فكرة الدولة الديمقراطية، التى تعيد الحقوق كاملة لأصحابها، وأن يتعايش فيها مواطنون من جنسيات وخلفيات عرقية مختلفة. والتخلى عن مبدأ النقاء العرقى؛ بحيث تتخذ إسرائيل الإجراءات الكفيلة بجعلها دولة ديمقراطية كأى دولة ديمقراطية فى العالم... فلا تتخذ من فرصة السلام فرصة للتخفى وفرض الهيمنة وتحقيق من خلاله مافشلت فى تحقيق بالحرب...

(٢) على صعيدى التفاوض العربى الغربى، والدعوة والإعلام يتعين على صانع القرار هنا أن يزيل الترديف الحاصل لكلمات «عربى» و«مسلم» و«إرهابى» و«متطرف» و«أصولى»، والذى يؤثر سلباً على صورة الإسلام الحقيقية، وذلك بإنتاج الاستراتيجيات الكفيلة برفع الالتباس والتحاور المنطقى فى عمليات التفاوض المباشر، والتفاوض الإعلامى سواء باستغلال مايتاح من لقاءات ووسائل للدخول فى حوارات فى وسائل الإعلام الغربية بالاستخدام الفعال للقنوات الفضائية المصرية والعربية... وعلى رجال الدعوة هنا توضيح عظمة الدين الإسلامية الأصلية، التى تبتعد عن التسلط والتطرف،

والتى تمثل فى الواقع مرتكزات ثقافة التفاوض الإيجابى بكل ماتحيله من مبادئ، ترتكز على إنشاء السلام العادل والتفاوض المثمر

(٣) أما على المستوى التعليمى والإعلامى أيضاً.. فمن المهم أن نعمل على الإزاحة ولو التدريجية لهيئة أساليب الحوار والخطاب التسلطى بتنوعاته وهياكله الظاهرة والخفية، والتى تمارس شعورياً ولاشعورياً، واستبداله بالخطاب النقيضى الذى يفتح آفاق العمل الجماعى الخلاق على الأصعدة السياسية والأجتماعية والإدارية.. ماهو ذلك الخطاب الذى يستمد أسسه مما أسميته بثقافة التفاوض الإيجابى، التى أوردت تفصيلاً لعناصرها فى سياق هذه الدراسة، وفى سياقات أخرى تم الإشارة إليها... وهنا لابد من التيقن **من أن العلاج الأمنى لظاهرة التطرف** والإرهاب لن يكون فعالاً على المدى الطويل، إلا إذا واكب ذلك علاج تقنى علمى فى العملية التعليمية والإعلامية. ولقد أوفدت هذه الدراسة عديداً من أوجه المعالجة التقنية لخطاب التسلط المولد للتطرف والإرهاب، وفى أكثر من موقع فى الدراسة. ولعل أهمها مقالة «لغة التطرف والإرهاب بين» «تكنولوجيا العداء» والمبدأ الديمقراطى، والتى كنت قد ساهمت بها فى ملف الإهرام بعنوان «الإرهاب والتطرف فى فكر المثقفين الذى تبنته الأهرام عام ١٩٩٢، والتى كانت موضع تأييد من كثير، ولعل المقالة التى كتبها الأستاذ الفاضل أنطوان سيدهم فى جريدة وطنى (٥ / ٧ / ١٩٩٢)، والتى أوردنا نصها فى هذه الدراسة؛ لتؤكد على أهمية تبنى التوصيات الموجهة لصانع القرار التعليمى والإعلامى فى هذا الصدد.

تأصيل مفهوم المباراة التفاوضية الإيجابية وأنواعها فى مواجهة مباريات التسلط والتطرف القائمة من أجل الحاضر والمستقبل.

فى نهاية هذه الدراسة، أرى من المهم أن نعمل على تأصيل مفهوم مباريات التفاوض الإيجابى فى مواجهة مباريات التسلط والتطرف القائمة. ولعلى أحد وهنا وبشكل موجز نوعية ومسميات هذه المباريات داخلياً ودولياً مهذه المباريات ومسمياتها الأولية كما يلى:

١ - المباراة التعليمية.. أو مباراة التآلف مع المفاهيم وضبطها

هذه المباراة معنية بإشاعة ثقافة التفاوض لمواجهة آليات التسلط والتطرف، وإشاعة النقد والابتكار فى مواجهة التلقين والشمولية ومعنية إذاً باشاعة مفاهيم وعلم إقامة الحجج لخطاب مناقض لخطاب التسلط ومجرة (المفاهيم والمتعلقة به)، والتفريق بين سلطة المكانة وسلطة السياسة والاستبداد، وإساءة هذه السلطات، وتعرف معادلات الحوار المختلفة والعديدة التى أشرنا إليها، وهدف هذه المباراة هو تنمية المهارات لضبطها

فضبطها؛ يعنى ضبط إيقاع تفاعلاتنا على أساس علمي، يبعدنا عن أوجه الخلل فى تفاعلاتنا... وهذه المباراة تعنى فى جوهرها إدخال البعد التقنى للحوار فى مناهجنا، دون تبسيط مخل... ففى أحيان عديدة، وعندما أتحدث عن هذه التقنية، أجد أساتذة أفاضل يتولون يعنى «أنت تقصد أدب الحوار». والحقيقة أن الأمر يتخطى مجرد أدب الحوار إلى الالمام بتقنياتة المعقدة والمركبة التى قدمت تفصيلات عديدة بشأنها.

٢ ـ المباراة الإدارية

هذه المباراة إذاً هى مباراة لادراج مادة لغة التخاطب بهذه المهارات الحيوية لأى عمل جماعى، سواء فى التعليم أو الإعلام.

٣ ـ المباراة الإعلامية

هذه المباراة التى سيكون لها تفصيلات وأمثلة وشرح للمفاهيم هى موضع دراسة منفصلة قادمة، تتعامل مع واقع وإدارة الأزمات والإدارة بالإزمات فى واقعنا، إلا أن هذه الدراسة قد تعرضت بشكل وافٍ لنموذج من الهياكل كنترول الجامعات المولدة لأنماط ومفاهيم التسلط فى الحوار وهو الأمر الذى يؤدى إلى التطرف والتناحر؛ حتى على مستوى الإدارة الأكاديمية فى جامعاتنا.

أشارت هذه الدراسة إلى أهمية مواجهة أنماط وأشكال التسلط فى الحوار فى الداخل بين الفئات والتيارات الفاعلة على الساحة داخلياً، وكذلك لتلك الأنماط الخطرة التى يمارسها الغرب واعلامه فى تفاعلاته معنا.

ولعلى أرصد هنا توارد المفهوم فى حوار أجراه الصحافى المتميز سليمان جوده مع د.عبد القادر حاتم بعنوان «نحن مقبلون على مباراة إعلامية بالغة الصعوبة» (بتاريخ ١٥/ ١٩٩٦/٢)؛ حيث قال:

«إن التعامل الإعلامى مع تحديات عصر جديد.. أولى مقتضياته هى الالتزام بالشفافية، فهى السلاح الأول فى معركة التنافس الإعلامى الجديد، إلى جانب المبادرة لا انتظار القيام برد الفعل. فالاستراتيجيات الإعلامية فى العالم تتسم بالجراة والاقتحام والمبادأة لأن لديها تصوراً تريد توصيله، مهما كانت الوجهة التى تتخفى وراءها، تتحدث عن حرية الرأى والإيمان بالتعددية. إننا فى عصر Globalism أو العالمية كما يقول البعض، و هو عصر قد ويتراءى للبعض فيه مدفوعاً بقوة هائلة وتفوق إعلامى إلى فرض نمط للحياة تتوحد فيه الملابس والأزياء وأنواع الطعام والشراب سوقاً هائلة، تتعاظم من ورائها الأرباح. وعالم كهذا لاينفع معه موقف التردد الإعلامى، فنحن أيضاً أصحاب تصور ورؤية، نريد توصيلها لجمهور عريض من المشاهدين بالطبع، مع إتقان وسائل العمل الإعلامى الحديث والسعى بقوة؛ لأن يكون وجودنا محفوظاً فى السماء بأقمار صناعية متطورة، مع تدريب كوادر جديدة، تتقن لغة الوسائط المتعددة وتطور

أداءها ليجذب جمهوراً وأعياً متذوقاً يقارن بين هذا الأداء وما يشاهده لدى الآخرين، إننا مقبلون على مباراة إعلامية بالغة الصعوبة، والفوز فيها للأقدر والأكبر مبادأة وصراحة، والتواجد المستمر على الساحة، وهو ما أعتقد أن إعلامنا يدرك أبعاده.»

٤ - المباراة الدبلوماسية

لاشك أن هذه المباراة تدار من قبل القائمين على السياسة المصرية الخارجية بحرفية ومهارة عالية، تحتاج إلى تكاتف وجهود مستمرة لاتكل ولاتهدأ فى ظل استهداف غير مسبوق للمنطقة وفى ظل حالة التفكك العربى الراهن واختلال ميزان القوة فى غير صالحنا. ولكن هذه المباراة لابد وأن تستمر بشكل من المبادأت وليس ردود الأفعال... والتحديات هائلة، وآخرها تحديات «الإرهاب» الدولى، والمعايير المزدوجة التى تقسم تفاعلات القوى الكبرى، وتحديات تسلط «السلام النووى» الذى يحاولون فرضه علينا، وتحديات الصراع الحضارى والثقافى فى عالم، يتسم بتناقضات حادة وتأطير متعسف وخاطئ لقيمنا الدينية والثقافية. ولعل هذه الدراسة تصنع أساس منطق الحوار العادل والإنسانى على عدة أصعدة، وبشكل وبجهد علمى فى إطار التحاور عبر التفاعلات مع الآخرين فى عالمنا للوصول إلى منطق علمى وانسانى تدار على أساسه التفاعلات، وهذه الدراسة تمثل بداية الجهد العلمى الذى أود أن أنقله دولياً على صعيد تفاعلات أكبر مشروع مستقبلى، تتبناه جامعة الأمم المتحدة، وأشارك فيه كباحث ضمن مائة باحث من مختلف دول العالم من المعنيين بالمستقبليات.(٤٥)

٥ - مباراة التفاعل الأجتماعى السياسى الجمعى

هذه المباراة يمكن وأن نسميها أيضاً بمباراة العمل على توسيع الهامش الديمقراطى والحفاظ عليه، على الأمل خالداً بممارسات ليست شعارات، وإنما هى ممارسات تنفيذية يجب أن نجمع على أهميتها وإدراجها فى أجندة العمل السياسى والاجتماعى فى كافة قطاعاتنا، ويمكن القول بأننا فى مواجهة رأيين أساسيين هنا: رأى يقول بتأجيل الديمقراطية لتحقيق التقدم والرخاء الاقتصادى، ورأى آخر يقول بأن الديمقراطية هى مفتاح تحقيق هذا الرخاء والتقدم ومحاربة الفساد، وتنوير الرأى العام باستمرار والنهوض بالوعى المجتمعى فى كافة القضايا، وهنا أود أن أرصد ما أورده الكاتب الكبير أ. أحمد بهجت فى الأهرام بتاريخ ١٥ / ٩ / ١٩٩٢ بعنوان «منطق المستبدين حيث يقول:

منطق المستبدين

«لنا صديق له بعض الميول الاستبدادية، وبسبب ميوله نراه حرباً على الديمقراطية والحرية، وحين يحتدم النقاش بيننا، ونختلف حول نوعية الحرية والديمقراطية، يسالنا هو ببرود: لماذا تريدون الحرية؟ ما الذى ستفعلونه بها؟، هل نسيتم أننا شعب أكثر من نصفه أمى لايقرأ ولايكتب؟، إن الطفل يجب أن يتغذى بحساب والإ أصابه المرض،

طفت هذه المناقشة على ذاكرتى، وأنا أقرا مذكرات فخرى عبد النور، وهى مذكرات نشرتها دار الشروق لواحد من أبطال ثورة ١٩١٩.

وهو يحكى فى مذكراته قصة الحوار، الذى دار بين المعتمد البريطانى والزعماء الثلاثة، الذين ذهبوا للمطالبة باستقلال مصر يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨

فى البداية قال السير ونجت مخاطباً الوفد: يجب ألا تتعجلوا، وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم، فإن المصريين فى الحقيقة لاينظرون فى العواقب البعيدة،

قال سعد باشا زغلول: إن هذه العبارة مبهمة، ولا أفهم المراد منها. قال السير ونجت: أريد أن أقول إن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر.

قال سعد باشا زغلول: لا أستطيع الموافقة على ذلك، واحتدم الحوار، وقال على شعراوى باشا محاولاً تهدئة الموقف نريد أن نكون اصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر، لا العبد للحر.. قال المعتمد البريطانى سير ونجت: إذاً فانتم تطلبون الاستقلال.

قال سعد باشا زغلول: نحن أهل للاستقلال.. ماذا ينقصنا ليكون لنا استقلال كباقى الأمم المستقلة؟

قال سير ونجت: ولكن الطفل إذا أعطى من الغذاء أكثر مما يلزم إصابته التخمة.. وتحدث عبد العزيز فهمى بك فقال: إننا لانبالغ عندما نطلب الاستقلال فإن الأمة المصرية أرقى من البلغار والصرب والجبل الأسود ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً.

وهنا رد السير ونجت: ولكن نسبة الأميين فى مصر كبيرة.. هذا هو منطق المستعمر وهو منطق المستبد.. إنه ينظر إلى الشعب كطفل تؤذيه الحرية كما يحتج بأن نسبة الأميين عالية وهذا عائق آخر أمام الاستقلال والحرية، وهذه وجهة نظر الذين يعمون من أنفسهم أوصياء على الشعوب، وهى كما نرى وجهة نظر الطغاة وأصحاب فكرة الحكم الأبوى الديكتاتورى وأسطورة المستبد العادل، وهى وجهة نظر انحدرت من أبناء الغرب المستعمرين (بكسر الميم) إلى أبناء العرب المستعمَرين (بفتح الميم)»

لاشك وأن شعب بعراقة الشعب المصرى العظيم لابد وأن يتبنى مقولة الزعيم سعد زغلول، وأن يتبنى عموم الحجة التى أوردها الكاتب أحمد بهجت فى مقالة، ولاشك أننا بحاجة إلى إدارة المباراة هنا فى اتجاه الإيمان المطلق بحقنا فى لفظ واستنكار منطق المستبدين، سواء انعكس ذلك فى حوار أى متحاور فى الداخل أو فى الخارج.. وأن نؤمن بأن قضية التأجيل ليست فى صالحنا، وأن قضية التوازن هى الأولى بالتبنى... فعلينا بإدارة مباراة محور الأمية بكل مستوياتها؛ لأنها عار علينا جميعاً، وعلينا إدارة مباراة الديمقراطية فى الوقت نفسه بشكل متوازن، فهذا أفضل الخيارات لنا جميعاً فى الحاضر وفى المستقبل.

٦ ـ مباراة أزهر مصر وكنيستها..

لأزهر مصر العريق ولمؤسساته ولجامعته ولوزارة الأوقاف معه دور حيوى ومعروف. وهناك اليوم تنسيق جيد بين هذه المؤسسات فى ظل قياداتها الراهنة... والجميع يتطلعون إلى مزيد فى أداء هذا الدور؛ نظراً للتحديات غير المسبوقة التى تواجهها الأمة العربية الإسلامية على اتساعها.. ففى الداخل هناك خلل فى فهم جوهر الدين الإسلامى الحنيف لدى كثيرين، وهناك جهد مضاعف مطلوب لأعداء الداعية والخطيب، سواء على صعيد الداخل أو الخارج... والأمر أصبح يتطلب بالإضافة إلى الجانب العقائدى والفقهى الإلمام بالسياقات المركبة والمتداخلة، التى يموج بها عالم اليوم من أجل خدمة العالم الإسلامى والنهوض به والتصدى للحملة ضد الإسلام التى تدار إما عن قصد أو جهل فى الغرب... وإذا كنا نلمس فى هذه الدراسة مفاهيم وآليات التسلط وكيفية مواجهتها من خلال ثقافة التفاوض الإيجابى، تلك الثقافة التى تعتبر معطياتها ومنطلقاتها من صميم ماتدعو إليه عقيدتنا الإسلامية الغراء؛ فهى ثقافة تنبنى على خبرات التفاعل الإيجابى، وإعانة البشر بعضهم لبعض فى طريق النماء والتعايش السلمى.. إذاً فالأخذ بمعطياتها سيمكننا من نبذ التناحر والتقاتل التعيس بين أبناء الأمة الواحدة، ولاشك أنها من أهم معطيات العصر؛ لأنها وسيلتنا للتفاوض والتفاعل مع الآخرين، الذين يملكون مقومات العلم والتكنولوجيا والتفوق، بل إنها وسيلتنا لترسيخ العقلية العلمية المنهجية الدقيقة، التى تحدث التغيير دائماً إلى الأفضل، إذاً هى ثقافة المستقبل أيضاً التى ستساعدنا فى تبوؤ الدور اللائق بنا فى هذا العالم، وتبعدنا عن عصر جاهلية الفكر الذى يريد من يتربص بنا السوء ـ سواء من بنى جلدتنا عن نقص معرفة أو من خارج عالمنا العربى الإسلامى من ذوى العقول غير المنصفة ـ أن يجبرنا على أن نعيش فى خضمها.. إن أولئك وهؤلاء يتوهمون أننا سنظل جثة هامدة، ونسوا أننا تعلمنا من رسول الله صلى عليه وسلم أن نواجه الجاهلية، التى أرسله الله سبحانه وتعالى؛ ليواجهها ويخرج هذه الأمة من ظلماتها. لقد واجه الرسول الجاهلية الأولى بالحوار والدعوة لتدبر الأمور، والتذكر فى أمور الدنيا وعظمة الخالق فى كونه وإبداعه، وصولاً إلى الإيمان بوحدانيته، والدعوة للنيل من علمه الذى وسع كل شىء سبحانه وتعالى.

لقد واجه الرسول الفكر المطلق والمتعسف إلى أن دحره، وأطلق العنان لطاقات الأمة من بعده؛ لتقيم صرح الحضارة الإسلامية، التى وصلت إلى مشارق الأرض ومغاربها، إلى أن حدثت لها انتكاسات وانتكاسات أعادتنا إلى شبه جاهلية أخرى، نرى فيها نفس ملامح التعسف والحدة والإطلاقية السطحية والانفعال والإحباط، وعدم الأخذ بتلابيب الأمور، حيث لاحوار ولامنطق له.. الأمر الذى أصبح يعزلنا عن العالم المتقدم، الذى عمل بمنطلق ما عملت به الحضارة العربية الإسلامية، وهى فى ذروة تألقها وأمجادها.

إننا اليوم ونحن نواجه جاهلية داخلية من نوع خاص، وجاهلية خارجية فى إطار النظام العالمى الجديد، وهى نوع مختلف... نجد أهمية أن نتسلح بمعطيات ثقافة التفاوض لمواجهة واحتواء الأمرين لصالح هذه الأمة. وإذا كنا بصدد محاولة تعرف علمى لثقافة التفاوض العالمية.. فإنه لمن الضرورى أن نرصد ملامح حقل التطبيق العربى، وما يموج به من اشتباكات خاطئة، تصرفنا عن الاهتمام بمشاكل التنمية الحقيقة، ولا أدل على طبيعة مثل هذه الاشتباكات الخاطئة من ملفات ضخمة «للحوار» المسهب، التى تفتح من آن لآخر، وبمعدل كبير، وتحت مسميات مختلفة، تراوحت فى طبيعتها من أهم الأشياء إلى أبسطها.. من الحوار «إسلامية المعرفة» و«الليبرالية» و«الديمقراطية» و«التنوير» و«مستقبل القومية العربية» و«إشكالية المصطلحات»، وملفات حوارات بخصوص النقابات إلى ملفات حوار حول «شهادة أمام إحدى المحاكم»، إلى «ملف لقضية ترقية أستاذ جامعى»، إلى ملفات حوار حول «غرف إحدى العبارات»، إلى عشرات من ملفات «الحوار» تفتح بين الحين والآخر... ولامانع ـ بل من المهم والحيوى ـ أن يفتح الحوار التفاوضى الإيجابى دائماً، ولكن المشكلة هى أن هذه الملفات تفتقر إلى حد بعيد إلى مواصفات لغة الحوار التفاوضى الإيجابى، التى ينبغى أن يوظفها المتحاورون.. إننا وبعد بحث هذه الملفات وجدنا أنها تعكس، بل وترسخ ملامح لغة للحوار تفتقد مقومات ومنطق الحوار السليم، وتتسم بكثير من الاشتباكات الخاطئة، التى لابد أن نعمل جميعاً على فكها من منطلق معطيات ثقافة التفاوض.

إن منطلقات مقاومة التسلط والاستبداد هى جوهر الأديان كلها، والإسلام يقدم صورة من أرقى مايكون إنسانياً وعلمياً، ولعلنا نرصد بإيجاز بعض من منها فى هذه الآيات الكريمة؛ حيث يحثنا الله تعالى على الإقرار بالاختلاف والتعامل فى إطار للواقع، مع من يخالفنا الأمر «ياأيها الناس إنّا خلقناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» و«لو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...» و«لاإكراه فى الدين»، وهذه الآية التى تعتبر قمة فى الابتعاد عن التسلط، والحفاظ على قوة دافعة للتحاور حتى مع الكفار؛ حيث لاينبغى أن يصر أحد على أنه على صواب دائماً وغيره على خطأ واضح، بل إن كلاً من الخطأ والصواب وارد على كل إنسان وأن التواضع فضيلة إنسانية أساسية، وهذا ما يؤكد عليه قول الحق سبحانه وتعالى:

«إنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين، قل لاتسئلون عم أجرمنا ولانسئل عما تعملون»

(سبأ ٢٤, ٢٥)

وقوله تعالى: وتعاونوا على البر والتقوى ولاتعاونوا على الإثم والعدوان.

«وقولوا للناس حسناً وفى التعامل مع أهل الكتاب يقول الحق: «ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن» ويكفى أن نقول إن لمصر خصوصية تميزها عن سائر دول العالم، وهى خصوصية العلاقة بين مسلمى واقباط مصر على مدى القرون، فهم إخوة وأهل، ولاشك أن كل مايفتح أبواب الفتنة التى يريدها الخصوم والأعداء من أهم المباريات التى ينبغى، وأن يديرها الأزهر والكنيسة داخلياً وخارجياً، وليس هناك أروع من مثال تلك الرحلة الهامة والحيوية التى قام بها فضيلة الأمام الأكبر شيخ الأزهر حاليا د. محمد طنطاوى المفتى سابقا مع القس د. صموئيل جيب راعى الكنيسة الإنجيلية بمصر إلى أمريكا؛ حيث كانت هذه الرحلة بمثابة تعبير وتجسيد على قوة رباط العلاقة بين أقباط مصر ومسلميها، ورسالة موجهة لكل من تسول له نفسه محاولة العبث بتماسك الجبهة الداخلية لمصرنا الجديدة(٤٦)

إن التحديات لاتزال كبيرة، وعلى أزهر مصر وكنيسة المزيد من التواصل والتسنيق لتحقيق العزة لمصرنا وللأمة العربية والإسلامية. كذلك إن مصر بأزهرها وكنيستها مؤهلة للتصدى للتطرف والإرهاب والإلحاد ولشيوع القيم غير الإخلاقية، وتعبئة دور الأديان كأدة من أهم أدوات الدبلوماسية المعاصرة، وطرح الوجه القومى للقيم الإنسانية والدينية كقوة للخير والسلام العادل، وللتصدى للجهل، وللمعايير المزدوجة، والقهر والظلام. إن هناك عديداً من المهام (المباريات) الايجابية التى ينبغى وأن يضطلع بها أزهر مصر وكنيستها فى عالم اليوم وأهمها مهمة بناء أمة تبنى الأخاء وتردكيد المعتدين...

المراجع

(١) Glenn.Jerome,**Future Mind:**
ArtibiciaL InteLLigence Acropolis
Books LTD, Washington D.C 1989

(٢) انظر مثلاً حسن وجيه، حسن **أزمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى** الوطن العربى، دار سعاد الصباح ١٩٩٢

(٣) راجع على سبيل المثال:

ـ **الدولة، والسلطة فى الفكر السياسى العربى**، شارلز باترورث دار الساقى، لندن ١٩٩٠ (ترجمة د. محمد شومان)

- **Modern Authoritarianism,** by Perlmutter, Amos, Yale University Press, New Haven CT 1981.

ـ **صناعة القهر: دراسة فى التعليم والضبط الاجتماعى**، د. طلعت عبد الحميد، سينا للنشر ١٩٩٠

ـ **الديكتاتورية الاستبدادية والديمقراطية والعالم الثالث**، سويم العزمى، المركز الثقافى العربى ١٩٨٧. لمزيد من المراجع فى هذا المجال هناك دراسة بيبليوغرافية مشتركة مع الباحثة الزميلة د. مارلين نصر

تعنى برصد أهم أدبيات «التسلط» على صعيد الأدبيات الأمريكية والفرنسية والأوربية والأمريكية اللاتينية والعربية؛ للوصول إلى رؤية كوكبية بخصوص زوايا واقترابات هذا الموضوع المهم من منظور عبر ثقافى وعبر تخصصى.

(٤) شرابى، هشام، **البنية البطركية**، بيروت، دار الطليعة ١٩٨٧.

(٥) راجع خلدون النقيب، **الدولة التسلطية فى المشرق العربى**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١.

(٦) - Adorno, T.W et al, the **Authoritarian** personality, New York, W.W. Norton 1969.

(٧) - Rokeah, M. **The Open & Closed Mind**, New York, Basic Books 1960.

(٨) **سيكولوجية التعصب**، بحوث اجتماعية ، اندريه هاينال، ميكلوس مولنار، وجيرار دى بوميج، دار الساقى، لندن ١٩٩٠ (ترجمة د. خليل أحمد خليل)

(٩) راجع المرجع (٨) ص ٩: ص ١٢

(١٠) lustick, Ian, **For the Land & the Lord: Jewish FundamentaLsim in Israel**: Council on Foreign Relat ions Press, New York 1988.

(١١) غارودى، روجيه، **الأصوليات المعاصرة أسبابها ومظاهرها**، تعريب د. خليل أحمد خليل، دار عام ألفين، باريس ١٩٩٢

(١٢) راجع (١١) ص ١٣

(١٣) مشكلة فهم جارودى هنا لمفهوم الحوار.. هو أن لاحوار بين «العبد والسيد» ولاحوار بين «الفرقاء» وهذا خلط فى المفاهيم... لأنه ماذا عن المفاوضات أو الحوار غير المتكافئ... فهذا موجود وله آلياته الخاصة. وتاريخ المفاوضات يوضح وجود هذا النوع، وكذلك إمكانية تحقيق الأجندة لدى الضعيف أو الأقل قوة فرصة للفوز لو أحسّن توظيف طاقاته وأوراقه، ودائماً هناك مفاوضات وحوار غير متكافئ أحياناً وأهميته اللاإنسانية والحاجة إليه فى كل الأحوال لاتكون إلا إذا كان بين فرقاء.. وهذه سنة من سنن الله فى خلقه.

(١٤) Johnstone, Douglas & Sampson Cynthia **Religion, the Missing Dimension of state Craft,** Foreward by Jimmy Carter, Center For Strategic & International Studies, Oxford univ. Press 1995.

(١٥) راجع (١٠) صـ viii

(١٦) Scruton, Roger **A Dictionary of Political Thought**, Hill & Wang. New York, 1982.

(١٧) راجع (١٦) صـ ١٢٧.

(١٨) راجع (١٦) صـ ٤٧٣.

(١٩) راجع (١٦) صـ ١٢٠.

(٢٠) راجع المرجع (١٦) صـ ١٦٤.

(٢١) راجع المرجع (٩١٦ صـ ٤٦١

(٢٢) راجع المرجع (١٦) صـ ٤٦٢ مفهوم الوصاية الثيوقراطية (Theocratic guardianship).

(٢٣) راجع المرجع (١٦) صـ ٣٣.

(٢٤) راجع كتاب:

د. إمام عبد الفتاح إمام، **الطاغية: دراسة فلسفية لصور من الاستبداد السياسى**، عالم المعرفة ١٨٣ الكويت، مارس ١٩٩٤.

(٢٥) راجع كتاب:

سويم العزى، **الديكاتورية الاستبدادية والديمقراطية والعالم الثالث**، المركز الثقافى العربى، بيروت، لبنان ١٩٨٧.

(٢٦) راجع كتاب:

عبد الرحمن الكواكبى، **طبائع الاستبداد**، دار الشرق العربى، بيروت، لبنان ١٩٩١.

(٢٧) راجع كتاب:

د. محمد معروف الدواليبى، **الدولة والسلطة فى الإسلام**، دار الصحوة للنشر والتوزيع ١٩٨٤.

(٢٨) راجع:

Merrill, John **Global Journalism**; Longman, N.Y 1991 (p. 13)

(٢٩) راجع:

Chemsky, Noam & Edwrad S. Herman, Manufacturing Consent: The Political Economy of the Mass Media, Pantheon Books, New York 1988.

(٣٠) «مباريات التفاوض الإدارى وتقويم الأداء الجامعى: الجامعات المصرية كنموذج» د. حسن وحيد، **مستقبل التربية العربية**، يوليو ١٩٩٥.

(٣١) «البنية التعليمية: تعزيز المركز لا إضافة الهوامش» د. مصطفى الرزاز الأهرام ٢١ / ٧ / ٩٥.

(٣٢) «البنية المركزية للتعليم بين المركزية والاختناق» د. مصطفى الرزاز - الأهرام ١٥ / ٩ / ٩٥.

(٣٣) "Islam & Us" **Middle East Times**, 15 th of Oct. 1994.

(٣٤) Speech to the College de France on "La part des peuples sémi-tiques dans l'histoire de la civilization on 23 Feb. 1862. by Ernest Renan.

(٣٥) راجع لكاتب السطور البحث التالى الذى ألقاه فى مؤتمر منظمة الأمن والتعاون الأوروبى، الذى عقد لأول مرة فى القاهرة ٢٦ ـ ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ بعنوان:

Conscious & Unconscious Linguistics As A New Dimension In Confidence - Building Measures: The Case of The Euro - Arab (MED) Dialogue.

(٣٦) راجع المرجع رقم (١) والمرجع التالى:

Education For the 21 st Century, by Hedley Bease, Routledge 1993.

(٣٧) راجع لكاتب السطور كتاب:

ازمة الخليج ولغة الحوار السياسى فى الوطن العربى دار سعاد الصباح ١٩٩٢.

(٣٨) حسن حنفى «قراءة النص: الهرمينوطيقا والتأويل» مجلة أ (العدد الثامن ١٩٨٤ (صـ ١٢).

(٣٩) - Lasswell, H & N. Listes **Language of Polities: studies in Quantitative Semanties**, George W. Stewart publisher Inc. N.Y. 1949.

(٤٠) Tannen, Deborah, **That IS Not What I Meant**, William Massow & Company. N. Y 1986 (pp 101 - 119)

(٤١) - Tannen, D. **You Just Don't Understand: Women and Men in Conversation**, Ballantine Books, N.Y 1990.

كراسة التفاوض
صـ ١٠٢

(٤٢) خبر منشور فى جريدة الأخبار والصفحة الأولى بعنوان «مدرس ثانوى يخنق زوجته لأنها متسلطة» بتاريخ ١٥ / ١ / ١٩٩٢.

(٤٣) راجعه: د. سعد الدين إبراهيم، **إعادة الاعتبار للرئيس السادات**، دار الشروق ١٩٩٢ (صـ ١٦١ ـ صـ ١٦٢).

(٤٤) للتفاصيل راجع المرجع رقم (٣٠).

(٤٥) لمزيد من التفاصيل راجع كُتيب جامعة الأمم المتحدة بعنوان:.

The Millennium Project: Feasibility Report by Jerome Glenn & Theodore Gordon prospectus Edition 1995.

(٤٦) أود أن أسجل شكرى وامتنانى هنا لكل من الأستاذين الفاضلين عصام واصف و أ. أديب نجيب سلامة بالهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية للحوار المثمر معهما، ولتزويدى بملف إعلامى توثيقى ضخم عن زيارة مفتى الجمهورية سابقاً وفضيلة الإمام الأكبر حاليا د. محمد سيد طنطاوى، والدكتور القس

صموئيل حبيب رئيس الطائفة الإنجيلية إلى الولايات المتحدة الأمريكية (٢ ـ ١٣ يناير ١٩٩٥) الأمر الذى يوضح ويوثق مدى التأثير الإيجابى والبناء للغاية الذى يحققه العمل المشترك المستمر بين أبناء البلد الواحد، بين عنصرى الأمة من المسلمين والأقباط داخلياً وخارجياً، وهذا الملف بحاجة إلى دراسة تفصيلية أخرى قائمة بذاتها.

رقم الإيداع ٢٠٠٧ / ١٩٩٧

